تعود إلى رئيس العائلة أو شيخ القبيلة وأعنى بذلك الأصل اللّغوىّ الّذى تشتقّ منه سائر الألفاظ وتتفرّع عنه مِنْ أجل التّعبير عن المعانى المختلفة ومن هنا يجب أن تتضمّن كلّ لفظةٍ مشتّقةٍ حروف الأصل ، وأن تشتمل على معناه ، ومن هنا كانت اللّفظة العربيّة المشتقّة قادرةً على الإدلاء بمعنيين اثنين وليس بمعنًى واحد . أمّا المعنى الأوّل فهو ما وضعت له اللّفظة أساساً كالسّماء والخيل والبيت والدّار والمنزل والقارورة وما إلى ذلك . وأمّا المعنى الثّانى فهو المستمدّ من اشتمال اللّفظة المشتقّة على حروف الأصل ومن ثمّ تدلّ اللّفظة بدورها على ذلك المعنى الّذى يعتبر الآن ثانياً أو ثانويّاً . ومن هنا كان المعنى الثانى للفظة السّماء السّموّ والارتفاع وللفظة الخيل الخيلاء ، وللفظة البيت صفةالبيتوتة باعتباره المكان الّذى يبيت فيه المسافرون أصلاً ، وللفظة الدّار صفة الاستدارة فى هذا النّوع من البيوت أصلاً ، وللفظة المنزل صفة النّزول باعتباره المكان الّذى ينزل فيه المسافرون أصلاً ، وللفظة القارورة صفة استقرار السّائل فيها ، فليس ببعيدٍ عن أسماعنا لفظة القرارة الّتى خلع عليها هذا الاسم لأنّ صفة استقرار الماء فى هذا النّوع المنخفض من الأرض من أهمّ صفات المسمّى الّتى راعت انتباه واضع الاسم أساساً أو واضعيه من بين صفات المسمّى الآخر ، ومن ثمّ خلع على المسمّى اللّفظ الّذى يحمل أبرز صفاته . إنّ هذا هو الّذى تمّ بشأن سائر الألفاظ المذكورة ، وبشأن سائر ألفاظ اللّغة العربيّة المشتقّة .

لقد كان العربىّ بسليقته وبفطرته قادراً على اقتناص كلّ هذه المعانى الأوّليّة والثّانية بشأن ما يحبّر من شعر ويقول من نثر ويسمع من كلام . ومن هنا كانت اللّفظة العربيّة المفردة قادرةً على الإدلاء بالمعنيين المذكورين . ومن هنا كانت اللّفظة العربيّة المنظومة قادرةً على الإدلاء بهذين المعنيين وبغيرهما من المعانى الّذى يريدها الأديب ويلمحها الأريب . إنّ هذا النّوع من السّليقة ذهب بذهاب الرّعيل الأوّل فى صدر الإسلام الّذى أخذت العُجْمة تطارده بالتّسرّب إلى الأجيال التّالية ابتداءً بمدن الإسلام الكبرى وعواصمه كالمدينة المنوّرة ومكّةّ المكرّمة وما إليهما .

وكما أفسدت العجمة الدّعامة الأولى من دعامتى السّليقة وهى القدرة على إدراك المعانى

الثّانويّة للألفاظ العربيّة المشتقّة وبذلك لم تعد العبارات فى نظر من تسرّبت إليه العجمة قادرةً فى نظره على الإدلاء بالإشعاعات المعنويّة التّى كان يدركها العرب الأقحاح بالفطرة والسّليقة ، أفسدت العجمة كذلك **الدّعامة الثّانية** وهى القدرة على إتقان ظاهرة الإعراب بالسّليقة لأنّ الإعراب فرع المعنى ولأنّ النّحو هو روح اللّغة العربيّة . لقد كان العرب بالسّليقة قادرين على الضّبط بالإعراب فى تحبير القول أو قرض الشّعر أو إرسال القول إرسالاً . إنّ اللّحن أو الخطأ لم يكن معروفاً لأنّ العربىّ منذ نعومة أظفاره لا يسمع إلاّ كلاماً صحيحاً . وبسبب تسرّب العجمة إلى اللّسان العربىّ ، ابتداءً بعواصم الإسلام الثّقافيّة الكبرى كالمدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة ، وبالأماكن القريبة من غير العرب ، أخذت هذه الدّعامة للسّليقة ، كما أخذت سابقتها ، تختفى تبعاً لانتشار العجمة وتغلغلها ، وتبعاً لظهور اللّهجات العامّيّة المحلّيّة على حساب اللّغة الفُصْحى الّتى قُدّر لها أن تحفظ بفضل الله تعالى بسبب نزول القرآن الكريم فيها وحفظ الله تعالى لكتابه العزيز إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . ومن هنا كانت عناية المسلمين ، عرباً وغير عرب بكلّ ماله علاقة بلغة الكتاب العزيز ، فحلّت اللّغة المكتسبة محلّ اللّغة بالسّليقة ، وإذا كان إدراك المعانى الثّانوية ومواقع الكلمات من الإعراب قد ذهب كلٌّ منهما بذهاب السّليقة فإنّ ذلك الإدراك أمكن بفضل الله تعالى الحصول عليه عن طريق اللّغة المكتسبة . ونحن بحاجة إلى أن ندوّن بإيجازٍ خطوات هذا التّحوّل كى يثبت أنّه بفشوّ العجمة السّريع فسدت السّليقة وبذلك ذهبت القدرة الفطريّة على قبول التّحدّى القرآنىّ بذهاب ذلك الرّعيل الأوّل الّذى أعلن عجزه عن الإتيان بمثل سورةٍ واحدة من سور القرآن الكريم ، إن لم يكن بلسان المقال فبلسان الحال .

إذا كان العرب فى صدر الإسلام كما كانوا قبله سليمى السّليقة اللّغويّة بالمعنى الّذى سبق أن بيّنا ، فإنّ هذه السّليقة بدأت تختفى بفشوّ العجمة فقد بدأ النّاس يدخلون بفضل الله تعالى فى دين الله تعالى أفواجاً من كلّ جنسٍ ولون . وقد عجّلت كثرة الاختلاط بالأعاجم نزول اللّغة العربيّة الفصحى عن مرحلة الكمال الّتى وصلت إليها قبل الإسلام والّتى تُوّجت بنزول القرآن الكريم فيها فشدّ ذلك من أزرها وارتفع بمستواها إلى درجةٍ

لا تلمحها الأبصار . لقد كانت اللّغة العربيّة ستنزل حتماً عن تلك القمّة الّتى تسنّمتها ، فليس فى مجال اللّغات كما فى غيرها من المجالات بعد الطّلوع إلاّ النزول ، ولكلّ شيءٍ إذا ما تمّ نقصان . وإنّ فشوّ العجمة عجّل بنزول اللّغة العربيّة عن قمّتها فأخذ اللّحن يدبّ ، وضعفت الملكة اللّغوية ابتداءً بالعواصم الثّقافيّة الكبرى كمكّة المكرّمة مهد القرشيّين الجماعة النموذجيّة المثالية فى مجال التمكّن اللّغوىّ خلال العصور ، وبدأت اللّهجات المحلّيّة تسير جنباً إلى جنب اللّغة الفُصْحى بالسّليقة أو بالتعلّم . ومن أجل ذلك الفساد ظهر فى نهاية القرن الأوّل الهجرى مبدأ تنقية اللّغة من الشّوائب الّتى علقت بها ابتداءً بالعواصم الثّقافيّة الكبرى كما بيّنّا . وفى القرن الثّانى الهجرى تمكّن اللّحن والفساد اللّغوىّ من كلّ المدن وسلمت البادية ، وفى هذا القرن كان أىّ بدوىّ حكماً عدلاً بشأن أىّ خلافٍ ينشب بين علماء اللّغة . وفى القرن الثالث الهجرى تسرّبت العجمة إلى البادية ودبّ اللّحن إليها ، فبدأ علماء اللّغة الّذين حذقوا اللّغة بالتّعلّم يصلحون من أخطاء عرب البادية اللّغوية . وفى القرن الرّابع الهجرى تمكّن الفساد اللّغوى من كلّ البيئات وسيطر على كلّ الأمكنة ، وفى هذا القرن كانت اللّغة الفصحى المكتسبة قد بلغت أوجها ، وأصبح علم فقه اللّغة علماً منظّما ، وحظى هذا القرن بفريقٍ من علماء اللّغة العظام الّذين دوّنوا معارفهم اللّغويّة فى أسفارٍ عظامٍ جليلة الخطر ، وبذلك حلّت اللّغة الفصحى المكتسبة محلّ اللّغة بالسّليقة . أمّا المعانى الثانويّة فتدرك غالباً عن طريق المعاجم اللّغويّة الّتى تجمع بين الأصل وبين مشتقاته . وأمّا ظاهرة الإعراب فتدرك عن طريق علم النّحو .

وبهذا يتبيّن أنّ السّليقة اللّغويّة قد بدأت تختفى ابتداءً من الأماكن الّتى كان يقطنها أكثر النّاس حِرْصاً على الرّغبة فى قبول التّحدّى القرآنىّ وإيناس قدرةٍ فى أنفسهم من التمكّن اللّغوىّ ، وأعنى بذلك مكّة المكرّمة مهد كفّار قريش والمدينة المنوّرة الّتى ظهر فيها ، بعد الهجرة ، وبعد انتصار المصطفى ﷺ فى بدرٍ على المشركين ، النّفاق ، الّذى اختفى هو بدوره بعد نزول سورة براءة وقبل لحاق المصطفى ﷺ بالرّفيق الأعلى بدليل انضمام كلّ المهاجرين وكلّ الأنصار والمسلمين إلى جيش أسامة بن زيد رضى الله تعالى عنهما الّذى جيّشه المصطفى ﷺ قبل وفاته .

وحينما ينقرض القرشيّون ومن لفّ لفّهم ، وحينما تختفى السّليقة من الوجود وإلى الأبد ، وحينما تذهب الرّغبة فى منافسة بيت بنى هاشم من قِبَل بعض بيوتات قريش ، وحينما تتفشّى العجمة وينتشر اللّحن وتظهر اللّهجات المحلّيّة ، وحينما تحلّ هذه اللّهجات محلّ السّليقة ، يكون معنى كلّ ذلك أنّ التّحدّى القرآنىّ قائمٌ إلى يوم الدّين ، لأن الجماعة القرشيّة النّموذجيّة المثاليّة فى مجال قبول التّحدّى القرآنىّ إذا كانت قد أعلنت عجزها وأثبتت فشلها فإنّ ذلك العجز والفشل سمةٌ أساسيةٌ للبشريّة فى مجال التّحدّى القرآنىّ ، وصدق عزّ من قائل[١] : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وإن الآية الكريمة التّالية مكملةٌ للتحدّى ومتمّمة له[٢] .

الآيــة رقــم (٢٤)

قال تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار الّتى وَقودها النّاس والحجارة ، أُعِدّت للكافرين ﴾ .

فإن لم تفعلوا . يقول القرطبىّ[٣] : « فإن قيل : كيف دخلت إن على لم ولا يدخل عاملٌ على عامل ؟ فالجواب أنّ إنْ هٰهنا غير عاملةٍ فى اللّفظ ، فدخلت على لم كما تدخل على الماضى ، لأنّها لا تعمل فى لم كما لا تعمل فى الماضى . فمعنى إن لم تفعلوا ، إن تركتم الفعل » ويقول الزّمخشرى[٤] : « فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسّورة واجب ، فهلاّ جىء بإذا الّذى للوجوب دون إن الّذى للشّكّ . قلت : فيه وجهان ، أحدهما أن يساق القول معهم على حسب حِسبانهم وطمعهم وأنّ العجز عن المعارضة كان قبل التّأمّل

---

(١) سورة الإسراء ٨٨

(٢) درسنا هذه الظّاهرة فى كتابنا نهوض القرآن الكريم بخصائص اللّغة العربية وفى تأمّلات فى سورة مريم ١٥٣ ــ ١٦١ وفى تأملات فى سورة الإسراء ٢٨٤ ــ ٢٩٦ .

(٣) تفسير القرطبى ص ٢٠١ (٤) الكشّاف ١/١٩١

كالمشكوك فيه لديهم لا تّكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام والثّانى أن يتهكّم بهم كما يقول الموصوف بالقوّة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه : إن غلبتك لم أبق عليك ، وهو يعلم أنّه غالبه ويتيقّنه تهكّماً به » .

والوقود بفتح الواو الحطب[١] وما ترفع به النّار[٢]فهو اسمٌ لما يوقد به[٣]وأمّا المصدر فمضموم ، وقد جاء فيه الفتح[٤] وهو أحد المصادر الّتى جاءت على فَعول ، وهى قليلة لم يحفظ منها فيما ذكر الأستاذ أبو الحسن بن عصفور سوى هذا والوَضوء والطَّهور والوَلوع والقَبول[٥] .

الحجارة جمع الحجر . والتاء فيها لتأكيد تأنيث الجمع كالفحولة[٦] .

أُعِدّت : هيّئت لهم وجعلت عدّةً لعذابهم[٧] .

وبعد هذه الجولة مع مفردات الآية الكريمة من الوجهة اللغوية ، نتحوّل إلى الدّراسة المتأمّلة .

عرفنا أن الآية الكريمة السّابقة فى إثباتها نبوّة محمّد بن عبد الله ﷺ تتحدّى كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم بأن يأتوا بمثل أقصر سورةٍ من سور القرآن الكريم وقد قال ابن كثير[٨] : « فالإعجاز حاصلٌ فى طوال السور وقصارها . وهذا لا أعلم فيه نزاعاً بين النّاس سلفاً وخلفاً » وهذه الآية الكريمة تعمّق إثبات نبوّة محمّد ﷺ بتقرير نوعين من معجزاته ﷺ متعلّقتين بالقرآن الكريم . أمّا المعجزة الأولى فمتعلّقةٌ بقوله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ ومعروفٌ أنّ لم حرف جزمٍ لنفى المضارع وقلبه ماضياً . وكأن الفعل المضارع هنا ينسحب على الزّمن المضارع بسبب الفعل وعلى الزّمن الماضى بسبب « لم » وبهذا نكون أمام تحدٍّ للقرآن الكريم مقرّرٍ عجز المخاطبين عن أن يأتوا حتّى اللّحظة الّتى يخاطبون فيها

---

(١) تفسير القرطبى ص ٢٠٤ (٢) الكشّاف ١/١٩٣

(٣) البحر المحيط ١/١٠٢ (٤) الكشّاف ١٩٣

(٥) البحر المحيط ١/١٠٢ وانظر تفسير الطّبرى ١/١٣١

(٦) البحر المحيط ١/١٠٢

(٧) الكشّاف ١/١٩٥ وانظر الجلالين والبحر المحيط ١/١٠٢ وتفسير ابن كثير ١/٦١

(٨) تفسير ابن كثير ١/٦٢

بمثل أقصر سورةٍ من سور القرآن الكريم . ويبقى وراء ذلك الزّمن المستقبل إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . وهذا الزّمن متعلّق بالمعجزة الثّانية المتعلّقة بقوله تعالى : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ والمعروف أنّ لن ولا « أختان فى نفى المستقبل إلاّ أنّ فى لن توكيداً وتشديداً . تقول لصاحبك :لا أقيم غداً . فإن أنكر عليك قلت : لن أقيم غداً . كما تفعل فى أنا مقيمٌ وإنى مقيم »(١) .

إنّه من المعروف أنّ الخطاب فى الآية الكريمة موجّهٌ فى المقام الأوّل إلى كفّار مكّة ، ووراء ذلك وهو ينسحب على كلّ الجماعات الّتى لها موقفٌ مماثل . ومن المعروف كذلك أنّ القول : ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ مقرِّرٌ عجز المخاطبين عن قبول التّحدّى القرآنىّ حيث إنّهم قد عجزوا عن الإتيان بمثل سورةٍ واحدةٍ فكيف بما وراء ذلك ، وفى تقرير عجز المخاطبين إثباتٌ لمعجزة المصطفى ﷺ المتمثّلة فى إعجاز القرآن الكريم . وهذا القول يصحّ وراء ذلك فى حقّ كلّ الأحياء المخاطبين إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . و لم تزدد حقيقة إعجاز القرآن الكريم بمرور القرون إلاّ رسوخا ، و لم يزدد الّذين يخاطبون بمرور اللّيالى والأيّام إلاّ عجزا ، ويستوى فى ذلك حالهم حينما يخاطبون بشأن الماضى والحاضر ، وهذان الزّمنان يشملهما القول : ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ وحينما يخاطبون بشأن المستقبل ، وهذا الزّمن يشمله القول : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ .

وإن ازدياد هذه الحقيقة رسوخاً بشأن الزّمن الماضى والحاضر ، وبشأن الزّمن المستقبل يجعلنا نقرّر الحقيقة القائمة من كون القرآن الكريم معجزاً بشأن عالم الشّهادة وبشأن عالم الغيب ، بشأن الماضى والحاضر وبشأن المستقبل ، بشأن مايقدّم وبشأن ما يؤخّر ، بشأن ما يعلن وبشأن ما يُخْفى ، بشأن ما يُعْطى وبشأن ما يمنع . إنّ على الإنسانيّة حينما يأمرها القرآن الكريم ويعطيها أن تمتثل وأن تأخذ . وحينما ينهاها ويمنعها أن تُذْعِن وأنْ تكفّ . وإنّ الأدلّة على إعجاز القرآن الكريم بما يعطى وبما يمنع أكثر من أن يأتى عليها الحصر . ونودّ أن نعطى دليلاً آخر على إعجاز القرآن الكريم بما يمنع

---

(١) الكشّاف ١/١٩٢

كي يقيس بعض من يصرّ على عناده ما عرف على ما ينبغي أن يعرف كي يعود إلى جادّة الصّواب . لقد بيّن القرآن الكريم حينما سُئل عليه الصّلاة والسّلام عن الرّوح أنّ الرّوح من أمر الله تعالى . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ ويسألونك عن الرّوح ، قل الرّوح من أمر ربّي وما أوتيتم من العِلْم إلاّ قليلا ﴾ . إنّ القرآن الكريم يقرّر بصريح العبارة أنّ الرّوح من أمر الله تعالى ، ويبيّن بصريح اللّفظ أنّ ما آتى جلّ وعلا النّاس من العِلْم قليلٌ جدّا . ويفهم من السّياق أنّ هذا القليل من العلم لا يوصل إلى العلم بحقيقة الرّوح وكنهها لأنّ العلم في ذاته قليل ، ولكون الرّوح من أمره جلّ وعلا وحده لا شريك له ، فلم يشأ جلّ وعلا لأحدٍ من خلقه أن يعلم أمر الرّوح مهما كان العلم كثيرا والمعرفة غزيرة ، فكيف إذا كان العلم في ذاته قليلا ؟ إنّ على كلّ عاقلٍ أن يقف حيث أمره القرآن الكريم أن يقف ، وأن ينتهي حيث أمره أن ينتهي ، وأن يوجّه نعمة العقل الّتي امتنّ الله تعالى بها عليه الوجهة الصّحيحة الّتي أرشده جلّ وعلا إليها ، كيلا تضيع جهوده هباءً ويذهب وقته سدى .

لنتحوّل إلى البشريّة الّتي حاول الكثير من أفرادها منذ عشرات القرون أن يقفوا على حقيقة الرّوح . إنّهم ما زالوا حيث بدءوا . وإن استمرّوا في محاولاتهم الفاشلة فسيظلّون واقفين حيث بدأوا وإن وهموا أنّهم قد قطعوا في سبيل الغاية أشواطاً وَهْمَ المبتدئ في تعلّم السّباحة حينما يتحرّك تحت الماء واهماً أنّه عبر المحيطات حتّى إذا فتح عينيه المطبقتين ، ووقف على قدميه الكليلتين ، وأزال عن وجهه الماء بيديه الحسيرتين ، كانت المفاجأة بالنّسبة له مضحكةً مبكية . إنّه إن لم يكن قابعاً في موضعه لعلّه يكون قد عاد إلى الوراء شيئاً قليلا . إنّ هذه الحال تشبه حال أولئك الّذين حاولوا استكناه الرّوح والوقوف على حقيقتها . ولقد كان الأَوْلى بهم والأَحْرى أن يأخذوا تعاليم القرآن الكريم ، كلام ربّ العالمين قضيّة مسلّمة ، بدلاً من أن تذهب جهودهم فيما لا طائل تحته أدراج الرّياح ، وأن يقولوا بعد إعياء ، بلسان الحال أو بلسان المقال ما صرّح به القرآن : ﴿ قل الروح من أمر ربّي ﴾ .

---

(١) سورة الإسراء ٨٥

إنّ مصير الباحثين فى حقيقة الرّوح الرّاغبين فى استكناه جوهرها هو مصير أولئك الّذين حاولوا جاهدين أن يأتوا بمثل أقصر سور القرآن الكريم . إنّهم باختصار ، وكما قال القرآن الكريم ، لم يفعلوا ولن يفعلوا ، وإنّ القرون الكثيرة الخوالى أكبر دليلٍ على إعجاز القرآن الكريم فيما يُعْطى وفيما يَمْنع .

وما هو واجب البشريّة تجاه القرآن الكريم والرّسول العظيم ودين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده وقد عجزت البشريّة عن الإتيان بمثل أقصر سور القرآن الكريم وثبت لها أنّ القرآن الكريم كلام ربّ العالمين نزل به من السّماء ملكٌ كريم ، على رسولٍ من البشر كريم ؟ إنّ واجب البشريّة أن تعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، الّذى خلقها وجعل لها الأرض فراشاً والسّماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لها ، وألاّ تجعل له أنداداً لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلقون ولا يملكون لأنفسهن ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشورا . ومن رحمة الله تعالى على البشريّة الّتى كرّمها وحملها فى البّر والبحر ورزقها من الطيّبات وفضّلها على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلاً ، وخاصّةً بنعمة العقل وبنعمة الاستعداد للعلم ، أن أرسل إليها رسله وأنزل عليهم كتبه ، وتوّج الكتب بأشرفها ، بالقرآن الكريم الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، وتوّج النبيّين بأشرف المرسلين وخاتم النبيّين محمّد بن عبد الله ﷺ رحمة الله تعالى المهداة ، ونعمته المسداة ، الشّاهد والمبشّر والنّذير والدّاعى إلى الله تعالى بإذنه والسّراج المنير .

إن البشريّة حينما تؤمن بالله تعالى وحده لا شريك له ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن الكريم دستوراً ، وبالرّسول العظيم إماماً ، وحينما تترجم تعاليم الإسلام إلى أعمال صالحة تريد بها وجه الله تعالى ، تكون بذلك قد اتّقت النّار . أمّا إذا استبدّ بها العناد ، وركبت رأسها ، وذُهِلت بسَفْساف الأمور عن جدّها ، وبرخيصها عن جيّدها ، وظلّت — على سبيل المثال — تقول كما قال كفّار مكّة فى حقّ القرآن الكريم : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ فإنّ مصيرها النّار وبئس القرار . وقد يجتمع إلى ذلك خِزْى الدّنيا . إنّ الآية الكريمة قفزت إلى الأمر باتّقاء النّار متجاوزة الأمور المفهومة ضمناً والّتى ألمحنا إليها . قال

تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار الّتى وقودها النّاس والحجارة أعدّت للكافرين ﴾ ومن تلك الحجارة الأصنام .

وإن المتأمّل للآية الكريمة يتبين وجه شبهٍ بينها وبين الآية الكريمة من سورة التّحريم ، تلك الآية الكريمة المكيّة فيما يقال[١] من سورة التّحريم الكريمة المدنيّة[٢] قال تعالى[٣] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها النّاس والحجارة عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ وإذا أخذنا بالرّأى المتّفق عليه من كون سورة التّحريم مدنيّة[٤] وكون الخطاب بالقول : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا ﴾ من سمات المدنىّ من القرآن[٥] يصحّ القول إنّ آية التّحريم المدنيّة نزلت قبل آية سورة البقرة المدنيّة ، وفى ضوء ذلك يُفْهم قول الزّمخشرىّ الّذى أخذه صاحب البحر المحيط[٦] على علاّته . يقول ، رحمه الله تعالى[٧] : « فإن قلت : فلم جاءت النّار الموصوفة بهذه الجملة منكرةً فى سورة التّحريم وهٰهنا معرّفة قلت : تلك الآية نزلت بمكّة فعرفوا منها ناراً موصوفةً بهذه الصّفة . ثمّ نزلت هذه بالمدينة مشاراً بها إلى ما عرفوه أوّلا » .

ويلاحظ على نار جهنّم أنّ وقودها النّاس والحجارة ، بعكس نار الدّنيا الّتى توقد أوّلا بالحطب وما أشبهه ثمّ يقذف فيها ما يراد حرقه أو حميه . جاء فى سورة البروج[٨] قوله تعالى : ﴿ قُتِل أصحاب الأُخدود . النّار ذات الوَقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ وجاء فى سورة القصص[٩] قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون يا أيّها الملأ ما علمت لكم مِنْ إلٰهٍ غيرى فأوقد لى يا هامان على الطّين فاجعل لّى صرحا لعلّى أطّلع إلى إلٰه موسى وإنّى لأظنّه من الكاذبين ﴾ إنّ نار جهنّم تنفرد بكون ما يُلْقى فيها من ناس وحجارة ومن إليهما هم وقودها . جاء فى سورة الجنّ[١٠] قوله تعالى :

---

(١) انظر الكشّاف ١٩٤/١ والبحر المحيط ١٠٧/١

(٢) الإتقان ٤٣/١

(٣) سورة التحريم ٦

(٤) انظر الإتقان ٤٤/١ ، ٤٥

(٥) انظر الإتقان ٦٨/١

(٦) ١٠٧/١

(٧) الكشاف ١٩٤/١

(٨) الآيات ٤ — ٧

(٩) الآية ٣٨

(١٠) الآية ١٥

﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا ﴾ وجاء فى كون الكافرين وآلهتهم الّتى عبدوها من دون الله تعالى حطب جهنّم قوله تعالى فى سورة الأنبياء[١] : ﴿ إنّكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنّم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكلٌّ فيها خالدون . لهم فيها زفيرٌ وهم فيها لا يَسْمعون ﴾ .

وقد جمعت الآية الكريمة بين الكافرين وبين الحجارة فى النّار ، بسبب المودّة الّتى كانت فى الدّنيا بين المشركين والأصنام الّتى عبدوها من دون الله تعالى . وقدّمت الآية الكريمة النّاس على الحجارة لأنّ ذلك الفريق من النّاس لم ينتفع بنعمة العقل الّتى امتنّ الله تعالى بها عليه فاستحقّ أن يقدّم فى النّار على ما لا يعقل .

وقد نصّت الآية الكريمة فى التّذييل على كون نار جهنّم الرّهيبة قد أعدّها الله تعالى وهيّأها للكافرين الّذين نصّت الآية الكريمة فى صدرها بعد حديثها عن نعوت المؤمنين على صفاتهم الذّميمة . وقد أحسن الطّبرىّ فى تفسيره التعبير عن معنى الكافرين فى الآية الكريمة . ذهب رحمه الله تعالى إلى : « .... أنّ الكافر فى كلام العرب هو السّاتر شيئاً بغطاء وأنّ الله جلّ ثناؤه إنّما سمّى الكافر كافراً لجحوده آلاءه عنده وتغطيتِهِ نعماءَه قِبَلَه . فمعنى قوله إذاً : أُعِدّت للكافرين ، أُعِدّت النّار للجاحدين أنّ الله ربُّهم المتوحّد بخلقهم وخلق الّذين من قَبْلهم الّذى جعل لهم الأرض فِراشاً والسّماء بناءً وأنزل من السّماء ماءً فأخرج به من الثّمرات رزقاً لهم ، المشركين معه فى عبادته الأنداد والآلهة وهو المتفرّد لهم بالإنشاء والمتوحّد بالأقوات والأرزاق »[٢] .

قال تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار الّتى وَقودها النّاس والحجارة أُعِدّت للكافرين ﴾ .

وبعد أن كانت النّذارة بالشّرّ للكافرين فى الآية الكريمة السّابقة ، جاءت البِشارة بالخير للمؤمنين الّذين يعملون الصّالحات فى هذه الآية الكريمة التّالية ، وذلك على عادة القرآن الكريم المتشابة المثانى ، الّذى تثنّى فيه البشارة بعد النِّذارة ، أو العكس ،

---

(١) الآيات ٩٨ — ١٠٠ (٢) تفسير الطّبرى ١/١٣٢

ويأتى الوعد إثر الوعيد ، والجنّة إثر النّار وهكذا .

الآيــة رقــم (٢٥)

قال تعالى : ﴿ وبشّر الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أنّ لهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار كلّما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الّذى رُزِقنا منْ قَبْلُ وأُتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مطهّرةٌ وهم فيها خالدون ﴾ .

الباء والشّين والرّاء أصلٌ واحد : ظهور الشّىء مع حُسْنٍ وجمال . فالبشرة ظاهر جلد الإنسان ، ومنه باشر الرّجل المرأة ، وذلك إفضاؤه ببشرته إلى بَشَرتها ، وسمّى البَشَرُ بَشَراً لظهورهم . والبشير الحسن الوجه . والبَشارة (بفتح الباء) الجمال . قال الأعشى :

ورأتْ بـأنّ الشّـيب جا نبـه البَشاشـةُ والبَشــارهْ

ويقال بشّرت فلاناً أُبَشّره تَبْشيرا ، وذلك يكون بالخير ، وربّما حُمِل عليه غيرُه من الشّرّ ، وأظنّ ذلك جنساً من التّبكيت . فأمّا إذا أُطلِق الكلام إطلاقاً فالبِشارة (بكسر الباء) بالخير والنِّذارة (بكسر النّون) بغيره .... وتباشير الصّبح أوائله[١] وما ظهر من أوائل ضوئه[٢] والتّبشير الإخبار بما يظهر أثره على البشرة وهى ظاهر الجلد لتغيّرها بأوّل خبرٍ يرد عليها . ثمّ الغالب أن يستعمل فى السّرور مقيّداً بالخير المبشّر به ، وغير مقيَّدٍ أيضا . ولا يستعمل فى الغمّ والشرّ إلاّ مقيَّداً منصوصاً على الشّرّ المبشّر به . قال الله تعالى : فبشّرهم بعذابٍ أليم[٣] وهذا من العكس فى الكلام الّذى يقصد به الاستهزاء الزّائد فى غيظ المستهزأ به وتألّمه واغتمامه[٤] .

والمأمور بالتبشير قيل النّبىّ ﷺ وقيل كلّ من يصلح للبشارة من غير تعيين[٥]

---

(١) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس « بشر »
(٢) الكشّاف ١٩٧/١
(٣) تفسير القرطبى ص ١٠٢
(٤) الكشّاف ١٩٧/١
(٥) البحر المحيط ١١٠/١

والتّضعيف فى بشّر من التّضعيف الدّالّ على التّكثير فيما قال بعضهم[١] وبشّر يتعدّى لمفعولين أحدهما بنفسه والآخر بإسقاط حرف الجرّ . فقوله : أنّ لهم جنّات هو فى موضع هذا المفعول . وجاز حذف حرف الجرّ مع « أنّ » قياساً مطّردا[٢] .

والصّالحات جمع صالحة ، وهى صفة جرت مجرى الأسماء فى إيلائها العوامل .... والألف واللاّم فى الصّالحات للجنس لا للعموم ، لأنّه لا يكاد يمكن أن يعمل المؤمن جميع الصّالحات لكن يحمل جملةً من الأعمال الصّحيحة المستقيمة فى الدّين على حسب حال المؤمن فى مواجب التّكليف[٣] وقول الجمهور فى تعريف الصّالح هو كلّ عملٍ صالحٍ أريد به الله[٤] .

واللاّم فى لهم للاختصاص . وتقديم الخبر هنا آكد من تقديم المخبر عنه لقرب عود الضّمير على الّذين آمنوا فهو أسرّ للسّامع[٥] .

والجنّات البساتين . وإنّما سمّيت جنّات لأنّها تجنّ من فيها أى تستره بشجرها ومنه المجنّ والجنين والجَنّة[٦] والجِنّة والجنّ[٧] والمجنون وهو الّذى جُنَّ عقله أى غُطّى .

والنّهر دون البحر وفوق الجدول . وهل هو نفس مجرى الماء أو الماء فى المجرى المتّسع قولان . وفيه لغتان فتح الهاء وهى اللّغة العالية والسّكون . وعلى الفتح جاء الجمع أنهاراً قياساً مطّرداً .... وسمّى نهراً لا تّساعه . أنهر وسّع . والنّهار لاتّساع ضوئه[٨] ومنه قول قيس بن الخطيم :

ملكت بها كفّى فأنهرت فتقها يَرَى قائمٌ مِن دونِها ما وراءها

أى وسّعها . يصف طعنة . ومنه قوله ﷺ : ما أنهر الدّم وذكر اسم الله عليه فكلوه . معناه ما وسّع الذّبح حتّى يجرى الدّم كالنّهر . وجمع النّهر نهر وأنهار[٩] .

---

(١) البحر المحيط ١/١١١
(٢) البحر المحيط ١/١١٢
(٣) البحر المحيط ١/١١١
(٤) البحر المحيط ١/١١١
(٥) البحر المحيط ١/١١٢
(٦) تفسير القرطبى ص ٢٠٥
(٧) البحر المحيط ١/١٠٩
(٨) البحر المحيط ١/١٠٩
(٩) تفسير القرطُبىّ ص ٢٠٥ ؛

من قبل : « يعنى فى الدّنيا ..... وقيل : من قبل يعنى فى الجنّة لأنّهم يرزقون ثمّ يرزقون . فإذا أُتوا بطعامٍ وثمار فى أوّل النّهار فأكلوا منها ثمّ أتوا منها فى آخر النّهار قالوا : هذا الّذى رزقنا من قبل ، يعنى أطعمنا فى أوّل النّهار ، لأنّ لونه يشبه ذلك . فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول[١] قال ابن عبّاس والضّحّاك ومقاتل : معناه رزق الغداة كرزق العَشِى[٢] يعنى فى الجنّة . وقال ابن عبّاس : يقولون ذلك على طريق التّعجّب . قال الحسن ومجاهد : يرزقون الثّمرة ثمّ يرزقون بعدها مثل صورتها والطّعم مختلف فهم يتعجّبون لذلك ويخبر بعضهم بعضاً . قال ابن عبّاس : ليس فى الجنّة شىءٌ ممّا فى الدّنيا سوى الأسماء وأمّا الذّوات فمتباينة[٣] .

وأُتوا مبنيّاً للمفعول قراءة الجمهور . وحذف الفاعل للعلم به وهو الخدم والولدان[٤] .

متشابهاً : حال من الضّمير فى به ، أى يشبه بعضه بعضاً فى المنظر ويختلف فى الطّعم . قاله ابن عبّاس ومجاهد والحسن وغيرهم . قال عكرمة : يشبه ثمر الدّنيا ويباينه فى جلّ الصّفات . ابن عبّاس : هذا على وجه التّعجّب . وليس فى الدّنيا شىءٌ ممّا فى الجنّة سوى الأسماء . فكأنّهم تعجّبوا لما رأوه من حسن الثّمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خياراً لا رذل فيه ، كقوله تعالى : كتاباً متشابهاً . وليس كثمار الدّنيا الّتى لا تتشابه لأنّ فيها خياراً وغير خيار[٥] والتّشابه تفاعل من الشّبه . والشّبه المثل[٦] .

وأزواج جمع زوج . والمرأة زوج الرّجل ، والرّجل زوج المرأة قال الأصمعىّ ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفرّاء أنّه يقال زوجة[٧] وذكر الفرّاء أنّ زوجاً المراد به المؤنّث فيه لغتان زوج لغة أهل الحجاز . وزوجة لغة تميم وكثيرٍ من قيس وأهل نجد . وكلّ شىءٍ قرن بصاحبه فهو زوجٌ له . والزّوج الصّنف ومنه زوجٌ بهيج ، أو يزوّجهم ذكراناً

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٢٠٥ (٢) البحر المحيط ١١٤/١

(٣) انظر البحر المحيط ١١٥/١ (٤) البحر المحيط ١١٥/١

(٥) تفسير القرطبى ص ٢٠٦ وانظر الكشّاف ٢٠٣/١ والبحر المحيط ١١٦/١ وتفسير ابن كثير ٦٣/١

(٦) البحر المحيط ١٠٩/١ (٧) تفسير القرطبى ص ٢٠٦

وإناثا[١] ولهم فيها أزواج : من الحور وغيرها[٢] .

مطهّرة نعت للأزواج . ومطهّرة فى اللّغة أجمع من طاهرة وأبلغ[٣]الطّهارة النّظافة والفعل طهَر بفتح الهاء وهو الأفصح وطهُر بالضم . واسم الفاعل منهما طاهر . فعلى الفتح قياس وعلى الضمّ شاذ نحو حَمَض فهو حامض وخَثَر فهو خاثر[٤] والمراد بتطهير الأزواج أن طهرن ممّا يختصّ بالنّساء من الحيض والاستحاضة وما لا يختصّ بهنّ من الأقذار والأدناس[٥] عن ابن عبّاس : مطهّرة من القذر والأذى[٦].وظاهر اللّفظ يقتضى أنّهنّ مطهّرات من كلّ ما يشينٍ لأن من طهره الله تعالى ووصفه بالتّطهير كان فى غاية النّظافة والوضاءة[٧]

بعد هذه الجولة الواسعة مع الآية الكريمة ، مع مفردات الآية الكريمة من الوجهة اللّغويّة غالباً ، نتحوّل إلى الدّراسة المتأمّله . ونودّ أن نستهلّ الدّراسة بعباراتٍ رائقة ، ومعانٍ فائقة لأبى حيّان فى البحر المحيط . يقول رحمه الله تعالى[٨] : « ولمّا كانت مجامع اللّذّات فى المسكن البهىّ ، والمطعم الشّهىّ ، والمنكح الوضىّ ، ذكرها الله تعالى فيما يبشّر به المؤمنون . وقد بدأ بالمسكن لأنّ به الاستقرار فى دار المقام . وثنّى بالمطعم لأنّ به قوام الأجسام . ثمّ ذكر ثالثاً الأزواج لأنّ بها تمام الالتئام » .

تبدأ الآية الكريمة بأمر المصطفى ﷺ أساساً بأن ينقل إلى المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات من الأنباء السّارّة لهم والنّعيم السّرمدىّ فى حقّهم من ربّ العالمين ما تشرق به أسارير وجوههم ، وتبتهج به نفوسهم ، وتهشّ له قلوبهم . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تقرن فى حقّ المؤمنين بين الإيمان والعمل الصّالح ، فليس الإيمان بالقلب والإعلان باللّسان مغنيين عن العمل الصّالح وهو الدّليل الوحيد على الإيمان . إنّ الإيمان عمل القلب ، ولا يعلم ما فى القلوب إلا الله تعالى الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علماً ، وإنّ هذا الإيمان القلبىّ

---

(١) البحر المحيط ١٠٩/١
(٢) الجلالين
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٢٠٧
(٤) البحر المحيط ١٠٩/١
(٥) الكشّاف ١٠٣/١
(٦) تفسير ابن كثير ٦٣/١
(٧) البحر المحيط ١١٨/١
(٨) البحر المحيط ١١٦/١

بحاجةٍ إلى الدّليل على صحّته والشّاهد على صدقه ، ولا يكون ذلك إلاّ بعمل الجوارح الصّالح . ومعروفٌ أنّ العمل الصّالح ينبغى أن يريد المرء به وجه ربّه الأعلى جلّ وعلا وإلاّ كان رياءً والرّياء نوعٌ من الشّرك الخفىّ . والله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال الصّالحة إلاّ ما كان خالصاً لوجهه الكريم . فينبغى أن يريد المؤمن بأعماله الصّالحة وجه ربّه الأعلى .

وهذه البشارة من ربّ العالمين للمؤمنين المتّقين العاملين للصّالحات ، متعلّقة بالجنّات ، هكذا بصيغة الجمع ، الّتى جعلها الله تعالى لهؤلاء المؤمنين فى طريقةٍ من التّعبير — حيث تقدّم خبر أن « لهم » العائد على المؤمنين — تدلّ أبلغ دلالة على الحفاوة الكبرى بهؤلاء المؤمنين وبأنّ تلك الجنّات حقٌّ خاصٌ لهم استحقّوه جزاءً من ربّ العالمين وفاقاً على أعمالهم الصّالحة وثواباً من عند الله كفاء نواياهم الحسنة ، فقد أرادوا بتلك الأعمال الصّالحة وجه الله تعالى : ﴿ بأنّ لهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ ومعروف أنّ فى الجنّة كما جاء فى الحديث الصّحيح ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . ومعروفٌ كذلك أنّ جنّات الدّنيا الّتى تجنّ بأشجارها الكثيفة الأرض وتغطّى بظلالها الوارفة العباد ، تتّخذ عادةً مكاناً للاستجمام لوقتٍ محدود ، فليست بالمستقرّ الدّائم ولا بالمقام المستمرّ . وبتأمّل جنّات الآخرة يتبيّن أنّها هى المستقرّ وهى المقام وهى وراء هذا وذاك دار الخلود . وحينما تذكر الجنّات المرتبط بها الأشجار الباسقة والظّلال الوارفة ، يتبادر إلى الذّهن المياه الّتى لولاها لما كانت جنّات الدّنيا مثلاً ، ولما دامت للجنّات خضرتها ولا استمرّت بهجتها . وإنّ الآية الكريمة فى ذكرها للجنّات تلبىّ حاجة النّفس الّتى استقرّ فى رُوعها ارتباط الماء بالجنّات . قال تعالى : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ إنّ النّهر الواحد كفيلٌ بإرادة الله تعالى كى يجعل الجنّة بل الجنّات دائمة الخضرة مستمرّة البهجة . ويتجلىّ فضل الله تعالى فى كون الأنهار كثيرة تماماً كما كانت الجنّات كثيرة . ومع أنّ المتبادر إلى الذّهن أنّ هذه الأنهار فى المقام الأوّل من ماء ، إلاّ أنّ فى الجنة غير هذا النّوع من الأنهار ، ومن ثمّ فإنّ إطلاق الأنهار فى الآية الكريمة يصحّ أن يفهم منه

شمول الأنهار الأخرى الّتى نصّ عليها قوله تعالى من سورة محمدّ ﷺ[١] : ﴿ مثل الجنّة الّتى وُعِد المتّقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّر طعمه وأنهارٌ مِنْ خمرٍ لذّةٍ للشّاربين وأنهارٌ من عَسَلٍ مصفّى . ولهم فيها من كلّ الثّمرات ومغفرةٌ من ربّهم كمن هو خالدٌ فى النّار وسُقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم ﴾ .

وبالإضافة إلى اقتران الماءَ بالجنّات يقترن الماء بشرب العباد له ، وهذا مفهومٌ ضِمْناً وهو من باب الأَوْلى ، وتتجاوز الآية الكريمة مرحلة الشّراب إلى مرحلة الطّعام ، لاقتران الطّعام بالشّراب المفهوم ضمناً من ناحية ، ومن ناحية أخرى لاقتران الطّعام بالجنّات أساساً ، ولحاجة الإنسان للطّعام بعد الشّراب الّذى فُهِم من السّياق حصول الإنسان عليه وقد حصلت عليه الجنّات الّتى تجرى من تحت أشجارها الأنهار .

ويفهم من السّياق كون طعام الجنّة غير مقطوع ولا ممنوع إضافةً إلى تميّزه . فهؤلاء المؤمنون المتّقون حينما يحصلون على الطّعام الّذى يشتهون فى أىّ وقت يشاءون فى الجنّة الّتى عرضها السّماوات والأرض وحينما يرون الثّمار الّتى يتمنّون بين أيديهم يقولون : إنّ ما نرى من طعام وثمار هو الّذى سبق لنا فى الجنّة أن رزقنا الله تعالى إيّاه ، حيث إنّ الخدم والولدان يأتون للمؤمنين بالرّزق متشابهاً شكلاً . فإذا ذاقه المؤمنون المتّقون ازداد تنعمّهم بتنوّعه حيث إنّه وإن تشابه شكلاً وتماثل ظاهراً فقد اختلف لوناً وطعماً ورائحة . ويظلّ المؤمنون المتّقون فى هناءٍ دائم ونعيم سرمدىّ .

أما وقد تحقّق المنظر الحسن ، والطّعام الهنئ ، والشّراب المرئ ، والسّكن البهىّ ، فالّذى يكمل به النّعيم وجود الأهل والأحباب وقد قال عزّ من قائل[٢] : ﴿ والّذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذرّيّتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كلّ امرئٍ بما كسب رهين ﴾ وقال تعالى فى حق أولى الألباب فى سورة الرّعد[٣] : ﴿ جناتُ عدنٍ يدخلونها ومن صَلَح مِنْ آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم والملائكة يَدْخلون عليهم مِنْ كلّ باب . سلامٌ عليكم بما صبرتم فنِعمْ عُقْبى الدّار ﴾ .

---

(١) الآية ١٥ (٢) سورة الطّور ٢١

(٣) الآية ٢٣ ، ٢٤

وإنّ الآية الكريمة لتنتقى من بين الأهل والأحباب تمام الهناء وعماد الأسرة وسكن الزّوج ورمز النّعيم وكماله فى تلك المناظر النّاضرة المبهجة ، أعنى الزّوجة الّتى لا يكمل النّعيم إلاّ بقربها وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ ومِنْ آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة ، إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ إنّ الزّوجة فى الحياة الدّنيا تخضع لضرورات الحياة الّتى تخضع لها كلّ امرأة من لدن أمّنا حواء . أمّا فى الجنّة فإنّ الزّوجات مطهّرات من كلّ أذًى فى الدّنيا وقذى .

ولو أنّا تمثّلنا بعض هذه الملابسات قد تحقّق فى هذه الحياة الدّنيا فإنّ من أكبر المنغّصات خوف الزّوال أو التّحوّل . أمّا فى الجنّة فالنّعيم باقٍ خالد سرمدىّ لا يزول ولا يحول . وقد قال تعالى[٢] : ﴿ فلا تعلم نفسٌ ما أُخْفى لهم من قرّة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ يا عبادِ لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الّذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنّة أنتم وأزواجكم تُحْبرون . يُطاف عليهم بِصِحافٍ من ذهبٍ وأكوابٍ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنّة الّتى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ منها تأكلون ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ إن أصحاب الجنّة اليوم فى شغلٍ فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلالٍ على الأرائك متّكئون . لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يدّعون . سلامٌ قولاً من ربّ رحيم ﴾ .

يقول أبو حيّان[٥] : « ولمّا ذكر تعالى مسكن المؤمنين ومطعمهم ومنكحهم وكانت هذه الملاذّ لا تبلغ درجة الكمال مع توقّع خوف الزّوال ولذلك قيل :

أشدّ الغمّ عندى فى سرورٍ تيقّن عنه صاحبه ارتحالا

أعقب ذلك تعالى بما يزيل تنغيص التّنعّم بذكر الخلود فى دار النّعيم » قال عزّ من قائل : ﴿ وبشّر الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أنّ لهم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار كلّما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الّذى رزقنا من قبل وأُتُوا به متشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ .

---

(١) سورة الرّوم ٢١
(٢) سورة السّجدة ١٧
(٣) سورة الزّخرف ٦٨ ــ ٧٣
(٤) سورة يس ٥٥ ــ ٥٨
(٥) البحر المحيط ١/١١٨

الآيــة رقــم (٢٦)

قال تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً مّا بعوضةً فما فوقها . فأمّا الّذين آمنوا فيعلمون أنّه الحقّ من ربّهم وأمّا الّذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً . يُضِلّ به كثيراً ويَهْدى به كثيراً وما يُضِلّ به إلاّ الفاسقين ﴾ .

مناسبة الآية الكريمة لما قبلها ظاهرة ، إذ قد جرى قبلُ ذكر المثل بالمستوقد والصيّب ونزل التّمثيل بالعنكبوت والذّباب ، فأنكر ذلك الجهلة وأهل العناد واستغربوا ما ليس بمستغربٍ ولا منكر ، إذ التّمثيل يكشف المعنى ويوضّح المطلوب[1] .

سـبب الـنزول :

أجمل أبو حيّان فى البحر المحيط[2] آراء العلماء فى سبب النّزول يقول : « قال ابن عبّاس والحسن وقتادة ومقاتل والفرّاء : نزلت فى اليهود لمّا ضرب الله تعالى الأمثال فى كتابه بالعنكبوت والذّباب والتّراب والحجارة وغير ذلك ممّا يستحقر ويطرح ، قالوا : إنّ الله أعزّ وأعظم من أن يضرب الأمثال بمثل هذه المحقّرات فردّ الله عليهم بهذه الآية . وقال الحسن ومجاهد والسّدّى وغيرهم : نزلت فى المنافقين قالوا : لمّا ضرب الله تعالى المثل بالمستوقد والصيّب قالوا : الله أعلى وأعظم أن يضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الّتى لا بال لها فردّ الله عليهم بهذه الآية . وقيل : نزلت فى المشركين . والكلّ محتمل إذ اشتملت على نقض العهد وهو من صفة اليهود لأنّ الخطاب بوفاء العهد إنّما هو لبنى إسرائيل وعلى الكافرين والّذين فى قلوبهم مرضٌ وهم المشركون والمنافقون ، وكلّهم كانوا فى إيذائه ﷺ متوافقين » وقد ذهب الطبرىّ إلى ترجيح حديث الآية الكريمة عن أمثال فى هذه السّورة الكريمة لا فى غيرها من السّور . يقول[3] : « غير أنّ أولى ذلك

---

(١) البحر المحيط ١/١٢٠

(٢) ١/١٢٠ وانظر تفسير الطبرى ١/١٣٨ وتفسير ابن كثير ١/٦٤ والكشّاف ١/٢٠٤

(٣) تفسير الطبرى ١/١٣٨

بالصّواب وأشبهه بالحقّ ما ذكرنا من قول ابن مسعود وابن عبّاس وذلك أنّ الله جلّ ذكره أخبر عباده أنّه لا يستحيى أن يضرب مثلاً مّا بعوضةً فما فوقها عقيب أمثالٍ قد تقدّمت فى هذه السّورة ضربها للمنافقين دون الأمثال الّتى ضربها فى سائر السّور غيرها ، فلأن يكون هذا القول ، أعنى قوله ، إنّ الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما ، جواباً لنكير الكفّار والمنافقين ما ضرب لهم من الأمثال فى هذه السّورة أحقّ وأولى من أن يكون ذلك جواباً لنكيرهم ما ضرب من الأمثال فى سائر السّور » .

يستحيى أصله يَسْتَحْيِيُ عينه ولامه حرفا علة . أعلّت اللّام منه بأن استثقلت الضّمّة على الياء فسكّنت واسم الفاعل على هذا مستحيى ، والجمع مستحيون ومستحيين . وقرأ ابن محيصن يستحى بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة .... واسم الفاعل مستح ، والجمع مستحون ومستحين قاله الجوهرى[١] وقرأ الجمهور يستحيى بياءين . والماضى استحيا وهى لغة أهل الحجاز . واستفعل هنا جاء للإغناء عن الثلاثى المجرّد كاستنكف واستأثر واستبدّ واستعبر . وهو من المعانى الّتى جاء لها استفعل .... وقرأ ابن كثير فى رواية شبل وابن محيصن ويعقوب : يستحى بياء واحدة وهى لغة بنى تميم يجرونها مجرى يستبى .... والماضى استحى .... وهذا الفعل ممّا نقلوا أنّه يكون متعدّياً بنفسه ويكون متعدّياً بحرف جرّ . يقال : استحييته واستحييت منه فعلى هذا يحتمل أن يضرب أن يكون مفعولاً به ، على أن يكون الفعل تعدّى إليه بنفسه أو تعدّى إليه على إسقاط حرف الجرّ[٢] والحياء والاستحياء والانخزال والانقماع والانقلاع متقاربة المعنى فتنوب كلّ واحدةٍ منها مناب الأخرى[٣] وأصل الاستحياء الانقباض عن الشّىء والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح وهذا محالٌ على الله تعالى[٤] والحياء تغيُّرٌ وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يعاب به ويذمّ ومحلّه الوجه ومنبعه من القلب واشتقاقه مِن الحياة وضدّه القِحَة[٥] يقال :

---

(١) تفسير القرطبى ص ٢٠٧

(٢) البحر المحيط ١/١٢٠ وانظر الكشّاف ١/٢٠٤

(٣) البحر المحيط ١/١١٨

(٤) تفسير القرطبىّ ص٢٠٨

(٥) البحر المحيط ١/١١٨ وانظر الكشّاف ١/٢٠٤ والقحة بكسر القاف وفتحا قلّة الحياء .

حيى الرّجل كما يقال نَسِيَ وحَشِيَ وشَظِي الفرس[١] إذا اعتلّت هذه الأعضاء جُعِل الحيّ لما يعتريه من الانكسار والتّغيّر منتكس القوّة منتقص الحياة[٢] .

واختلف المفسّرون فى معنى الاستحياء المنسوب إلى الله تعالى نفيه . فقيل المعنى لا يترك . فعبّر بالحياء عن التّرك قاله الزّمخشرىّ وغيره ، لأنّ التّرك من ثمرات الحياء لأنّ الإنسان إذا استحيا من فعل شيءٍ تركه فيكون من باب تسمية المسبَّب باسم السَّبب . وقيل المعنى لا يخشى . وسمّيت الخشية حياءً لأنّها من ثمراته ورجّحه الطّبرىّ ... وقيل المعنى لا يمتنع . وكلّ هذه الأقوال متقاربة من حيث المعنى يجوز أن يوصف الله تعالى بها[٣] .

أن يضرب مثلاً : أن يبيّن ويصف كما قال جلّ ثناؤه : ضرب لكم مثلاً من أنفسكم بمعنى وصف لكم[٤] .

والمَثَل : الشّبه . يقال : هذا مِثل هذا ومَثَله كما يقال شِبْهه وشَبَهُه ومنه قول كعب ابن زهير :

كانت مواعيد عرقوبٍ لها مثلاً وما مواعيدها إلاّ الأباطيل

يعنى شبها[٥] .

وما هذه إبهاميّة ، وهى الّتى إذا اقترنت باسمٍ نكرة أبهمته إبهاماً وزادته شِياعاً وعموماً ، كقولك : أعطنى كتاباً مّا ، تريد أىّ كتابٍ كان[٦] .

والبعوضة واحد البعوض . وهى طائرٌ صغيرٌ جدّاً معروف[٧] والبعوضة فعولةٌ من

---

(١) نَسِي شكا نساه . والنّسا عرقٌ من الوركِ إلى الكعب . والحشى : ما دون الحجاب ممّا فى البطن من كبدٍ وطِحال وكرِش . وحَشِي أصابه مرض الحشى . والشّظى : عظمٍ مستدق لاصق بالرّكبة أو بالذّراع أو عصبٌ صغار فيه .

(٢) الكشّاف ١/٢٠٤ وانظر البحر المحيط ١/١٢١

(٣) البحر المحيط ١/١٢١ وانظر الكشّاف ١/٢٠٤ وتفسير الطبرى ١/١٣٩

(٤) تفسير الطبرى ١/١٣٩ (٥) تفسير الطبرى ١/١٣٩

(٦) الكشّاف ١/٢٠٤ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٢٠٨ والبحر المحيط ١/١٢٢

(٧) البحر المحيط ١/١١٩

بَعَضَ إذا قطع اللّحم يقال : بضع وبعض بمعنى . وقد بعّضته تبعيضاً أى جزّأته فتبعّض[١] والبعوض فى أصله صفة على فعول كالقطوع فغلبت ، وكذلك الخموش[٢] ويقول أبو حيّان فى إعراب بعوضة[٣] : « وقرأ الجمهور بنصب بعوضة . واختلف فى توجيه النّصب على وجوه .... والّذى نختاره من هذه الأعاريب أنّ ضرب يتعدّى إلى اثنين هو الصّحيح وذلك الواحد هو مثلاً لقوله تعالى : ضرب مثل . ولأنّه المقدّم فى التّركيب وصالحٌ لأن ينتصب بيضرب . وما صفة تزيد النّكرة شِياعاً لأنّ زيادتها فى هذا الموضع لا تنقاس . وبعوضة بدل » .

فما فوقها : الظّاهر أنّه يعنى فى الحجم كالذّباب والعنكبوت قاله ابن عبّاس . ويكون ذكر البعوضة تنبيهاً على الصّغر ، وما فوقها تنبيهاً على الكبر . وبه قال أيضاً قتادة وابن جريج . وقيل : المعنى فما فوقها فى الصِّغر أى وما يزيد عليها فى الصِّغر كما تقول : فلانٌ أنذل النّاس فيقال لك : هو فوق ذلك أى أبلغ وأعرق فى النّذالة . قاله أبو عبيدة والكسائى .... والّذى نختاره القول الأوّل لجريان فوق على مشهور ما استقرّ فيها فى اللّغة[٤] وهذا هو رأى الطّبرى[٥] وهو الرّأى الّذى نرتضيه .

وتصدير الجملتين بأمّا الّتى معناها الشّرط مشعرٌ بالتّوكيد إذ هى أبلغ من فالّذين آمنوا يعلمون والّذين كفروا يقولون . إذ قد تقرّر أن ما برز فى حيّز أمّا من الخبر كان واقعاً لا محالة[٦] .

ماذا : ما استفهام إنكار مبتدأ . وذا بمعنى الّذى بصلته خبره[٧] .

مثلاً : منصوب على التّمييز[٨] .

والفسق أصله فى كلام العرب الخروج عن الشّىء . يقال : فسقت الرّطبة إذا

---

(١) تفسير القرطبى ص ٢٠٩ (٢) الكشّاف ١/٢٠٩

(٣) البحر المحيط ١/١٢٢ ، ١٢٣

(٤) البحر لمحيط ١/١٢٣ وانظر الكشّاف ١/٢٠٥ وتفسير ابن كثير ١/٦٤ وتفسير الطبرىّ ١/١٤٠

(٥) تفسير الطّبرى ١/١٤٠ (٦) البحر المحيط ١/١٢٤

(٧) الجلالين وانظر تفسير القرطبىّ ص ٢٠٩ والكشّاف ١/٢٠٦ والبحر المحيط ١/١١٩

(٨) انظر تفسير القرطبىّ ص ٢٠٩ والجلالين والكشّاف ١/٢٠٥ والبحر المحيط ١/١٢٥ .

خرجت عن قشرها والفأرة من جحرها . والفويسقة الفأرة[١] لخروجها عن جحرها للفساد[٢] والفسق فى عرف الاستعمال الشّرعىّ الخروج من طاعة الله عزّ وجلّ .فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان[٣] وفسق الرّجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضاً عن الأخفش فسقاً وفسوقاً أى فجر[٤] فكذلك المنافق والكافر سمّيا فاسقين لخروجهما عن طاعة ربّهما ولذلك قال جلّ ذكره فى صفة إبليس :إلاّ إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه ، يعنى به خرج عن طاعته واتّباع أمره[٥] .

بين يدى تأمّلنا للآية الكريمة نودّ أن نشير إلى أمرين مهمّين .أوّلهما هو أنّ لفظة بعوضة فى القرآن الكريم لم تأت إلاّ فى هذه الآية الكريمة .وآخرهما هو أنّ العنكبوت والذّباب اللّذين ضرب القرآن الكريم بهما المثل ، واللّذين قيل إنّهما سبب نزول الآية الكريمة بسبب استنكاف خصوم الإسلام ضرب القرآن الكريم المثل بهما[٦] قد جاء ضرب المثل بالعنكبوت فى سورة مكّيّة نزلت قبل هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة ، والمعروف أنّ سورة العنكبوت من آخر ما نزل من القرآن الكريم قبل الهجرة يقول السّيوطىّ فى الإتقان بشأن ما نزل بمكّة من القرآن[٧] : « ..... ثمّ الرّوم ثمّ العنكبوت ثمّ ويلٌ للمطففين فهذا ما أنزل الله بمكّة .ثمّ أُنْزِل بالمدينة سورة البقرة .... » كما جاء ضرب المثل بالذباب فى سورةٍ مدنيّة متأخِرٍ نزولها نسبيّا . يقول السّيوطى[٨] بشأن ما نزل بالمدينة من القرآن : « .... ثمّ الحجّ ثمّ المنافقون ثمّ المجادلة ثمّ الحجرات ثمّ التّحريم ثمّ الجمعة ثمّ التّغابن ثمّ الصّفّ ثمّ الفتح ثم المائدة ثمّ براءة » فإذا ذهبنا إلى كون ضرب المثل بالذّباب وهو من جنس البعوض قد جاء متاخّراً نزولاً عن ضرب المثل بالبعوضة من ناحية وعن ضرب المثل بالعنكبوت من ناحية أخرى ، وهذا من باب الأَوْلى ، بسبب نزول سورة العنكبوت المتقدّم ، استطعنا أن نفهم أنّ حديث الآية الكريمة عن ضرب المثل بالبعوضة ، وهى أصغر حجماً من كلٍّ من الذّباب والعنكبوت ،

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٢١٠
(٢) تفسير ابن كثير ١/٦٥
(٣) تفسير القرطبىّ ٢١٠
(٤) تفسير القرطبى ص ٢١٠
(٥) تفسي الطّبرىّ ١/١٤٢
(٦) انظر ما ذكرناه فى سبب نزول الآية الكريمة
(٧) الإتقان ١/٤٣
(٨) الإتقان ١/٤٣

إنّما يراد به فى المقام الأوّل تقرير صغر حجم البعوضة وقماءتها ، وأنّ له جلّ وعلا الّذى لا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون أن يضرب المثل بأصغر الموجودات وأكبرها أذلّها وأعزّها ، أهونها وأشرفها . ولا ننسى وراء كلّ ذلكّ أنّ الآية الكريمة فيها تقرير كونه جلّ وعلا لا يستنكف أن يضرب المثل بالبعوضة فما فوقها ، فليس فى الآية الكريمة ضرب مثلٍ فعلىّ بالبعوضة .وقد عرفنا أنّ فى سورة الحجّ ضرب مثل بالذّباب وهو من جنس البعوض . قال تعالى[1] ﴿ يا أيها النّاس ضُرِب مثلٌ فاستمعوا له إنّ الّذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذّباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطّالب والمطلوب ﴾ وبما أنّ نزول القرآن الكريم كان مفرَّقاً ويصحّ نزول آياتٍ من سورةٍ متقدّمة فى مجموعها نزولاً بعد آياتٍ من سورةٍ متأخّرةٍ فى مجموعها نزولاً ، خاصةً بشأن سورةٍ طويلةٍ كسورة البقرة الّتى نرى أنّها نزلت منجّمةً وإن نزل بعضها فى أوّل الفترة المدنيّة ، فإنّا لا نرى ما يمنع أن يكون نزول آية ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها إثر استنكار خصوم الإسلام ضرب القرآن الكريم المثل بالذّباب والعنكبوت وما إليهما .

فى ضوء معرفة ملابسات الاستحياء فى حقّنا نحن البشر من ترك واستنكاف وخشية ، نستطيع أن نقول فى حقّ معنى الآية الكريمة : إنّ الله سبحانه وتعالى لا يترك ولا يستنكف أن يضرب ويبيّن ، من أجل تقريب المعانى العميقة والمرامى البعيدة ، أىّ مثلٍ كان ، صغيراً حقيراً كالبعوضة ، أو كبيراً شريفاً : لأنّ العبرة وأخذ العظة ، وجعل المعنى العميق الغور البعيد المغزى ، سهل التّناول قريب المأخذ ، وجعل المتخيّل المتوهّم فى حكم المدرك المحسوس ، هى الأمور المهمّة المقصودة من ضرب الأمثال . فعلى سبيل المثال ، حينما أريد تبيين المدى البعيد لعجز الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، بيّنت آية سورة الحجّ أنّ هذه الآلهة مجتمعة أعجز من أن تخلق ذباباً ، وهو المعروف بحقارته وقذارته ، ولو اجتمعت كلّ الآلهة فى صعيدٍ واحد ، وكان بعضهم لبعض ظهيراً ، من أجل خلق ذبابة واحدة .ولمّا ثبت عجز تلك الآلهة المزعومة عن خلق ذبابة واحدةٍ تمّ

---

(١) سورة الحجّ ٧٣

التّجاوز إلى مرحلةٍ يتبيّن فيها العجز بدرجةٍ أشدّ .فلو أن الذّباب المهين سلب الآلهة المزعومة شيئاً هيّناً كهوانها ، لعجزت الآلهة عن استنقاذ ما سلبتهم الذبابة الواحدة إيّاه . وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقة .« وهو مثلٌ ما زال معجزاً للعلم والعلماء بعد ألف سنة من تطوّر العلم والتّكنولوجيا .فمن يستطيع أن يخلق ذبابةً على هوانها وتفاهتها ؟ وإذا سلبتك الذّبابة حياتك بمرضٍ تنقله إليك فمن يستطيع أن يرد لك تلك الحياة . بل إنّها لو سلبتك ذرّةً من النّشا من طعامك فإنّ عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذّرّة من أمعائها لأنّها تتحول فوراً إلى سكّر بفعل الخمائر الهاضمة .فما أضعف الطّالب والمطلوب »[1] وإنّ البعوضة من جنس الذبابة . فما أبلغ المثل وما أقدره على إصابة الهدف ونقل المعانى الخفيّة وتقريب المرامى القصيّة . فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيء الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء :

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها ... فى ظلمة اللّيل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها[2] فى نحرها ... والمخَّ فى تلك العظام النُّحَّل
اِغْفِرْ لعبدٍ تاب من فَرَطاته[3] ... ما كان منه فى الزّمان الأوّل

وهذه البعوضة الحقيرة المهينة ، حينما نتأمّلها متغافلين إلى حين عن قذاها وأذاها نتبيّن فيها ، كما نتبيّن فى كلّ شيءٍ خلقه الله تعالى معنى قوله عزّ من قائل[4] : ﴿ ما ترى فى خلق الرّحمٰن من تفاوت ﴾ إنّ فى البعوضة مع صغر حجمها وضعف بنيانها من حسن التّأليف ودقيق الصُّنع من اختصار الخصر ودقّة الخرطوم ولطيف تكوين الأعضاء ولين البشرة ما يعجز أن يحاط بوصفه وهى مع ذلك تبضع بشوكة خرطومها مع لينها جلد الجاموس

---

(١) القرآن محاولة لفهمٍ عصرىّ ٢٧٩

(٢) النّياط ككتاب الفؤاد .القاموس .

(٣) الفرطات كثرة مجاوزة الحدّ .جاء فى لسان العرب « فرط » « والفُرْطة بالضّمّ ، اسمٌ للخروج والتّقدّم . والفَرْطة بالفتح المرّة الواحدة منه مثل غُرفة وغَرفة وحُسوة وحَسوة ، ومنه قول أمّ سلمة لعائشة :إنّ رسول الله ﷺ نهاكِ عن الفُرْطة فى البلاد . غيره : وفى حديث امّ سلمة قالت لعائشة رضى الله عنهما : إنّ رسول الله ﷺ نهاك عن الفُرْطة فى الدّين يَعْنى السّبق والتّقدّم ومجاوزة الحدّ » .

(٤) سورة الملك ٣

والفيل ، وتهتدى إلى مراقّ البشرة بغير دليل ، فلا يستحيى الله تعالى أن يضرب بها المثل ، إذ ليس فى وُسْع أحدٍ من البشر أن يخلق مثلها ولا أقلّ منها كما قال تعالى :﴿ لن يخلقوا ذباباًولو اجتمعوا له ﴾ »(١) .

وإذا كان ضرب المثل بالبعوضة والذّبابة والعنكبوت قد ثبتت بلاغته وظهر إعجازه ، ومن ثمّ تقتضى الحكمة ألاّ يترك التّمثّل بهذه المخلوقات الجليلة الخطر مع هوانها ، فمن باب أولى ألاّ يترك التّمثل بما هو أخطر منها شأناً .

وتبعاً لإيمان الّذين تضرب لهم الأمثال أو كفرهم يكون الموقف من هذه الأمثال بنوعيها بل من القرآن الكريم . إنّ المؤمنين المتّقين يعلمون علم اليقين أنّ المثل هو الحقّ الثّابت من ربّهم جلّ وعلا ، لأنّهم مؤمنون بأنّ القرآن كلام ربّ العالمين ، وبأنّ المصطفى ﷺ رسول ربّ العالمين . ويلاحظ أنّ الحديث عن المؤمنين يستعمل فى حقّهم جملة « يعلمون » فهم قد وصلوا إلى مرحلة العلم اليقينىّ القطعىّ ، ويستعمل لفظ ربّ المتّصل به ضمير جماعة الغائبين .والمعروف أنّ لفظ ربّ إنّما يستعمل فى مقام الخصوص ، وفى حال الرّضا والسّرور ، والبشر والحبور ، والفطنة إلى آلاء البرّ الغفور ، ووجوب شكر الكريم الشّكور .

أمّا الكافرون فإنّ السّياق يستخدم فى حقّهم جملة « يقولون » وشتّان بين العلم فى حقّ المؤمنين والقول فى حقّ الكافرين . وماذا يقول أولئك الكافرون ، إنّ ما يقولونه موافقٌ لموقفهم المعتاد المألوف الرّافض للقرآن الكريم وآياته البيّنات .إنّهم يسألون فى إنكار :ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ ما الّذى أراده الله تعالى بضرب المثل بهذا المخلوق المستقذر كالذّباب الممتهن كالعنكبوت ؟ وليس سؤالهم الإنكارىّ إلاّ امتداداً لإنكارهم للقرآن الكريم جملةً وتفصيلا ومن باب أولى أن يكون هذا هو موقفهم من هذا النّوع من الأمثال لأنّ على قلوبهم أقفالها ، فهم ليسوا مستعدّين لتقبّل المعانى القريبة التّناول فكيف بالمعانى الّتى يحتاج فهمها وتقبّلها لتهيُّؤٍ واستعداد .

---

(١) البحر المحيط ١/١٢٤

ويكون الجواب من الله تعالى المبيّن حقيقة موقفهم من الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد . إنّهم بسبب فسقهم وخروجهم من صراط الله تعالى المستقيم قد أضلّهم الله تعالى وأعمى أبصارهم .وهذا الجواب ذاته هو الّذى جاء فى سورة المدثر[١] وقد قال تعالى : ﴿ وليقول الّذين فى قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا . كذلك يضلّ الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ فالله سبحانه وتعالى يضلّ من يشاء ويهدى من يشاء ، ويضلّ بالمثل كثيراً من الّذين لم ينتفعوا بنعم الله تعالى الّتى أنعمها عليهم وفى مقدّمتها العقل الّذى يعلمون به معانى الأمثال ويعقلون مراميها ، ويهدى به كثيراً من الّذين وفّقهم الله تعالى فآمنوا واتّقوا واهتدوا فزادهم الله تعالى هدىً إلى هداهم . جعلنا الله تعالى هداةً مهتدين إنّه سميعٌ مجيب .

الآيــة رقــم (٢٧)

قال تعالى :﴿ الّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

النّقض : إفساد ما أبرمته من بناءٍ أو حبلٍ أو عهد[٢] والفسخ وفكّ التّركيب .فإن قلت :من أين ساغ استعمال النّقض فى إبطال العهد . قلت . من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوُصْلة بين المتعاهدين .ومنه قول ابن التّيّهان فى بيعة العقبة : يا رسول الله إنّ بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها فنخشى إن الله عزّ وجلّ أعزّك وأظهرك أن ترجع إلى قومك .وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشّىء المستعار ، ثمّ يرمزوا إليه بذكر شىءٍ من روادفه فينبّهوا بتلك الرّمزة على مكانه .ونحوه قولك : شجاع يفترس أقرانه ، وعالمٌ يغترف منه النّاس[٣] .

من بعد ميثاقه : هو ما وثّقوا به عهد الله من قبوله وإلزامه أنفسهم . ويجوز أن يكون بمعنى توثقته كما أن الميعاد والميلاد بمعنى الوعد والولادة[٤] والأصل فى الميثاق العهد المؤكّد

---

(١) سورة المدّثّر ٣١
(٢) تفسير القرطبى ١١ ٢٠
(٣) الكشاف ٢٠٧
(٤) الكشّاف ١/٢٠٧

باليمين مِفْعال من الوثاقة والمعاهدة ، وهى الشّدّة فى العقد والرّبط ونحوه ، والجمع المواثيق على الأصل ، لأن أصل ميثاق موثاق قلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها[١] .

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى كون الّذين يَضِلّون بالمثل القرآنىّ ولا يهتدون به هم الفاسقين على جهة الخصوص ، الخارجين عن الصّراط المستقيم .وهذه الآية الكريمة التّالية تبيّن أهمّ صفات هؤلاء الفاسقين . وهى ثلاث صفات تتحوّل فى تدرّج بديع من الخاصّ إلى الّذى يقلّ عنه خصوصيّة إلى العام ، مع اشتمال التّالى للسّابق إضافةً إلى الجديد الّذى يتضمّنه .إنّهم ينقضون عهد الله تعالى من بعد توكيده ويقطعون ما أمر جلّ وعلا به أن يوصل ويفسدون فى الأرض .وتبيّن الآية الكريمة عاقبة القوم ومصيرهم يوم القيامة إنّه الخسران المبين .

فما المراد بنقض عهد الله تعالى من بعد ميثاقه وما المراد بالعهد ؟ المراد بعهد الله تعالى هو ما أمر الله تعالى به عباده فى كتبه المنزلة على أنبيائه بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وفعل الأوامر واجتناب النّواهى . والوفاء بالعهد امتثال أوامر الله تعالى ونقض العهد مخالفة أوامر الله تعالى . والمعروف أنّ العهد بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له قد أخذه الله تعالى علينا ونحن فى عالم الذّرّ فى صلب أبينا آدم عليه السّلام . وقد جاء فى سورة الأعراف قوله تعالى[٢] :﴿ وإذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين .أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذرّيّةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ إنّ الفاسقين نقضوا عهد الله تعالى وينقضونه دائماً وأبداً من بعد ميثاقه ، توثيقه وتوكيده ، بقبوله وإلزامهم أنفسهم به . والمعروف أنّ هذا العهد قد ازداد توثيقاً ورسوخاً بإرسال الله تعالى رسله وإنزال كتبه عليهم . ويظلّ هؤلاء الفاسقون ينقضون عهدهم فى كلّ مرةٍ وهم لا يتّقون .

أمّا صفة هؤلاء الفاسقين الضّالّين التّالية فهى كونهم يقطعون ما أمر الله تعالى به أن

---

(١) تفسير القرطبى ٢١١

(٢) الآية ١٧٢ ، ١٧٣

يوصل .ويلاحظ جلال المقابلة وجمالها فى القول :« يقطعون » و « يوصل » ويلاحظ مخالفة القوم الصّريحة التّامّة لأوامر الله تعالى .فما المراد بما أمر الله تعالى به أن يوصل ؟ ذهب جمهور العلماء إلى كونه شاملاً لكلّ ما أمر الله تعالى به أن يوصل وليس مقصوراً على أمرٍ واحدٍ بعينه . إنّه يشمل ما أمر الله تعالى به من عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له وإقامة شرائعه وتطبيق حدوده إضافة إلى صلة الرّحم الّتى احتفى بها الإسلام احتفاءً بليغاً[١] والمعروف أنّ مصدر جملة قطع بشأن الرّحم القطيعة[٢] وحينما لا يعبد الفاسقون الله تعالى وحده لا شريك له ، وحينما يشركون معه سواه ، يكونون بذلك قد نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وبهذا تتضمّن الصّفة الثّانية السّيّئة الصّفة الأولى السّيّئة وزيادة .

فإذا تحوّلنا إلى صفة هؤلاء الفاسقين الضّالّين الثّالثة فى الآية الكريمة تبيّنّا أنّها تشمل الصّفتين السّابقتين إضافة إلى الشّمول الّذى يعنيه إفساد هؤلاء الفاسقين المتعمّد فى أىّ موضعٍ وصلوا إليه فى أرض الله تعالى الطّويلة العريضة .وقمّة فساد القوم إشراكهم مع الله تعالى فى العبادة سواه .وما مصير هؤلاء الفاسقين الضّالّين ؟ مصيرهم الخسران المبين فى الّدنيا والآخرة .إنّهم فى هذه الحياة الأولى هم الخاسرون حقّاً وإن كان ظاهر حالهم الرّبح والنّجاح لأنّ عاقبتهم فى الآخرة أن يدخلوا النّار وبئس القرار .وما أكبر ذلك من خسران .يقول أبو حيّان[٣] فى ترتيب الصّفات الثّلاث :« وترتيب هذه الصِلات فى غايةٍ من الحسن لأنّه قد بدأ أوّلاً بنقض العهد وهو أخصّ هذه الثّلاث .ثمّ ثنّى بقطع ما أمر الله بوصله وهو أعمّ من نقض العهد وغيره . ثمّ أتى ثالثاً بالإفساد الّذى هو أعمّ من القطع .وكلّها ثمرات الفسق » .

❖ ❖ ❖

---

(١) انظر مثلاً تفسير القرطبى ص ٢١٢ والبحر المحيط ١/١٢٨

(٢) تفسير القرطبى ٢١٢ (٣) البحر المحيط ١/١٢٩

[٥]

الخلق والبعث والجزاء

الآيات ٢٨ ــ ٣٩

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ
الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى
السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ
فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا
سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾
فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾
قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

على الرّغم من لفت انتباه النّاس إلى خلق الله تعالى لهم والّذين من قبلهم وخلق ما فى السّماوات وما فى الأرض من أجلهم وإنزال القرآن الكريم معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة والّذى ضرب الله تعالى فيه من كلّ مثل فإنّ كثيراً من النّاس كافرون . وفى أسلوب الاستفهام الإنكارىّ يُتَعَجّب من أولئك الكافرين المصرّين على كفرهم وهم الّذين يعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى موجدهم من العدم وهو الّذى إليه يرجعون وهو الّذى خلق لهم ما فى السّماوات وما فى الأرض جميعاً . ويشير السّياق إلى استواء الله تعالى إلى السّماء وتسويتها سبع سماواتٍ طباقاً ، وإلى قول ربّ العزّة للملائكة إنّه جلّ وعلا جاعلٌ فى الأرض خليفة وإنّه تعالى يعلم ما لا يعلم الملائكة الّذين قالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ﴾ وعلّم الله سبحانه وتعالى آدم عليه السّلام الأسماء ومسمّياتها وعرضهم على الملائكة الّذين ما علّمهم الله تعالى تلك الأسماء والمسمّيات فما استطاعوا أن ينبئوه جلّ وعلا بأسماء تلك المسمّيات وأنبأهم آدم عليه السّلام ، الّذى علّمه الله تعالى ، بأسمائهم : ﴿ فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّى أعلم غيب السّماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ وبهذا فضل آدمُ عليه السّلام العالِمُ الّذى علّمه الله تعالى الملائكة وثبت فضل العلم على العبادة الّتى مثّلها الملائكة المفردوا الإرادة الّذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وتأكيداً لفضل العلم يأمر ربّ العزّة الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السّلام سجود تحيةٍ وتكريم ويفعل الملائكة ويأبى إبليس المستكبر الكفور . ويأمر الله تعالى آدم عليه السّلام أن يسكن الجنّة ويأكل من كل الثّمرات هو وزوجه حوّاء عليها السّلام وينهاهما عن مجرّد الاقتراب من شجرةٍ بعينها . ويستطيع اللّعين إغواءهما ويخرجان من الجنّة ويتلقّى آدم من ربّه جلّ وعلا كلماتٍ فى التّوبة ويقبل تعالى توبته ويؤمران بأن يهبطا من الجنّة ويتّبعاهما وذرّيّتهما الهدى من الله تعالى . أمّا الكافرون فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون .

الآيــة رقــم (٢٨)

قال تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه تُرجعون ﴾ .

كيف : اسم استفهامٍ عن حال .وصحبه معنى التّقرير والتّوبيخ فخرج عن حقيقة الاستفهام .وقيل صحبه الإنكار والتّعجب[١]والإنكار بالهمزة إنكارٌ لـذات الفعـل وبكيف إنكارٌ لحاله . وإنكار حاله إنكارٌ لذاته لأنّ ذاته لا تخلو من حالٍ يقع فيها ، فاستلزم إنكار الحال إنكار الذّات ضرورة وهو أبلغ إذ يصير ذلك من باب الكناية حيث قصد إنكار الحال والمقصود إنكار وقوع ذات الكفر[٢] .

بعد أن كان الحديث فى الآية الكريمة السّابقة المبيّنة صفات الفاسقين فى صيغة الغائب ، يكون الحديث فى هذه الآية فى هيئة مخاطبة هؤلاء الفاسقين ، وفى هذا التحوّل إلى أسلوب الخطاب من القوّة ما فيه ، لأنّ الكلام يتّجه مباشرة إلى الّذى يعنيه .وفى هذه الآية الكريمة يتم الاستفهام الإنكارىّ التّوبيخىّ التقريعىّ للفاسقين الّذين يكفرون بالله تعالى ، إمّا بالإشراك معه جلّ وعلا سواه أو بإنكار وجوده عزّ وجلّ ، إذ كيف يصحّ لهم أن يتلبّسوا بالكفر وهم على علمٍ تامٍّ بأنّهم كانوا أمواتاً فى أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى فى أرحام أمّهاتهم ثمّ يميتهم جلّ وعلا ثمّ يحييهم بالبعث من أجل الحساب ، فالثّواب أو العقاب ، فإليه يرجعون جلّ وعلا .

ويلاحظ أنّ العطف كان أوّل الأمر بالفاء ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ بسبب قرب الحياة الأولى من الموتة الأولى ، قرب الحياة فى الأرحام من الموت فى الأصلاب .بينما كان العطف بعد ذلك بـ « ثمّ » الّدالة على التّرتيب مع التّراخى لبعد الموت الثّانى عادةً عن الحياة الأولى وبعد الحياة الثّانية بالبعث والنّشور عن الموت الثانى . وهذان النّوعان من

---

(١) البحر المحيط ١/١٢٩ وانظر تفسير القرطبىّ ٢١٣

(٢) البحر المحيط ١/١٢٩ وانظر الكشّاف ١/٢٠٨

الموت والحياة أشار إليهما قوله تعالى[١] : ﴿ قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ يقول الطّبريّ[٢] : « عن ابن مسعود وعن ابن عباس .... معنى قوله : وكنتم أمواتاً . أموات الذّكر خمولاً فى أصلاب آبائكم نطفاً لا تعرفون ولا تذكرون فأحياكم بإنشائكم بشراً سويّاً حتّى ذكرتم وعرفتم وحييتم ثمّ يميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم رفاتاً لا تعرفون ولا تذكرون فى البرزخ إلى يوم تبعثون ثمّ يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث السّاعة وصيحة القيامة ثمّ إلى الله ترجعون بعد ذلك كما قال : ثمّ إليه ترجعون . لأن الله جلّ ثناؤه يحييهم فى قبورهم قبل حشرهم ثمّ يحشرهم لموقف الحساب كما قال جلّ ذكره : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنّهم إلى نصبٍ يوفضون ﴾ . وقال : ﴿ ونفخ فى الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون ﴾ .

والمعروف أنّ الواو فى القول : ﴿ وكنتم أمواتاً ﴾ واو الحال[٣] .

الآيــة رقــم (٢٩)

قال تعالى : ﴿ هو الّذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السّماء فسوّاهنّ سبع سماواتٍ وهو بكل شيءٍ عليم ﴾ .

لمّا ذكر تعالى دلالة من خَلْقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلاً آخر ممّا يشاهدونه من خلق السّماوات والأرض[٤] .

خلق معناه اخترع وأوجد بعد العدم[٥].

جميعاً : عند سيبويه نصب على الحال[٦] .

---

(١) سورة غافر ١١ (٢) تفسير الطّبرى ١/١٤٨

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٢١٣ والكشّاف ١/٢٠٨ والبحر المحيط ١/١٣٠

(٤) تفسير ابن كثير ١/٦٧

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٢١٥ وانظر تفسير الطّبرى ١/١٤٩

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٢٢٣ والكشّاف ١/٢٠٩ والبحر المحيط ١/١٣٤

ثمّ : ثمّ هٰهنا لمّا بيّن الخلقين من التّفاوت وفضل خلق السّماوات على خلق الأرض لا للتّراخي في الوقت كقوله : ثمّ كان من الّذين آمنوا[١] ولترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر نفسه[٢] .

والاستواء في اللّغة الارتفاع والعلوّ على الشّيء . قال الله تعالى : ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفُلْك ﴾ وقال : ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾. وقال الشّاعر :

فأوردتهم ماءً بفيفاء قفرةٍ وقد حلّق النّجم اليمانيّ فاستوى

أي ارتفع وعلا . واستوت الشّمس على رأسي ، واستوت الطّير على قمّة رأسي بمعنى علا[٣] ولمّا سئل مالك وغيره من السّلف عن قوله تعالى[٤] : ﴿ الرّحمن على العرش استوى ﴾ قالوا : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسّؤال عنه بدعة . وكذلك قال ربيعة شيخ مالك قبله : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله البيان ، وعلى الرّسول البلاغ ، وعلينا الإيمان . فبيّن أنّ الاستواء معلوم ، وأنّ كيفيّة ذلك مجهول . ومثل هذا يوجد كثيراً في كلام السّلف[٥] .

والسّماء هٰهنا اسم جنس فلهذا قال : فسوّاهنّ سبع سموات وهو بكلّ شيءٍ عليم[٦] .

وأمّا قوله فسوّاهنّ فإنّه يعنى هيّأهنّ وخلقهنّ ودبّرهنّ وقوّمهنّ . والتّسوية في كلام العرب التّقويم والإصلاح والتّوطئة كما يقال : سوّى فلان لفلانٍ هذا الأمر إذا قوّمه وأصلحه ووطّأه له ، فكذلك تسوية الله جلّ ثناؤه سماواته تقويمه إيّاهنّ على مشيئته وتدبيره لهنّ على إرادته وتفتيقهن بعد إرتاقهن[٧] ويقول الزّمخشري[٨] : « ومعنى تسويتهّن تعديل خلقهنّ وتقويمه وإخلاؤه من العوج والفطور أو إتمام خلقهنّ » .

---

(١) الكشاف ١/٢٠٩ وانظر البحر المحيط ١/١٣٤

(٢) تفسير القرطبيّ ص ٢١٧ (٣) تفسير القرطبيّ ص ٢١٧

(٤) سورة طه ٥ .

(٥) الرّسالة التّدمريّة لابن تيمية ص ٣٥ وانظر ص ١٧

(٦) تفسير ابن كثير ١/٦٧ (٧) تفسير الطّبريّ ١/١٥١

(٨) الكشّاف ١/٢٠٩ وانظر البحر المحيط ١/١٣٥

عليم : من أمثلة المبالغة . وقد وصف تعالى نفسه بعالم وعليم وعلاّم . وهـذان للمبالغة[١] .

كان حديث الآية الكريمة السّابقة عن خلق النّاس وعن الموتين والحياتين ، بقصد أن يبصر النّاس ذوات أنفسهم ويأخذوا منها العظة والعبرة والدّليل على وحدانيّة الله تعالى واستحقاقه أن يعبد جلّ وعلا وحده لا شريك له . وهذه الآية الكريمة التّالية تتحوّل إلى أدلّة خارجيّة للغاية ذاتها ، وتقرّر أنّ الله سبحانه الّذى يكفر به الفاسقون الخاسرون وقد أوجدهم من العدم وأسبغ عليهم نعمه ، هو جلّ وعلا الّذى خلق للنّاس ما فى الأرض جميعاً .

وجملة خلق تشير إلى إيجاد الله تعالى المخلوقات من العدم وعلى غير مثالٍ سابق . ولا تستغنى الآية الكريمة عن القول : « لكم » إشعاراً بكرامة هذا الإنسان ومنزلته الرّفيعة العالية عند بارئه جلّ وعلا إذا أحسن تقدير النّعم وقام بما يجب عليه إزاءها شكراً لله تعالى . وإنّ هذا التّكريم من الله تعالى الّذى خصّ به الإنسان دليلٌ على أنّه ينتظر منه لأن يقوم بواجب شكر النّعم ، وأنّه أهلٌ لذلك . ولا تكتفى الآية الكريمة باستعمال ما الدّال على غير العاقل وهو الأكثر وذلك فى القول « ما فى الأرض » إنّما تردف ذلك بلفظة « جميعاً » الّتى يفهم منها عدم استثناء شيءٍ ممّا خلقه الله تعالى . فالله سبحانه وتعالى قد سخّر لجنس الإنسان كلّ ما فى الأرض . وهذا المعنى عمّقه مثل قوله تعالى[٢] : ﴿ ألم تروا أنّ الله سخّر لكم ما فى السّماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة . ومن النّاس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ الله الّذى سخّر لكم البحر لتجرى الفُلْكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون . وسخّر لكم ما فى السّماوات وما فى الأرض جميعاً منه . إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ .

وحينما تتحدّث الآية الكريمة عن استواء الله تعالى إلى السّماء وتسويته جلّ وعلا

---

(١) البحر المحيط ١٣٦/١ يريد عليم وعلاّم .

(٢) سورة لقمان ٢٠

(٣) سورة الجاثية ١٢ ، ١٣

لها سبع سماوات إثر الحديث عن خلق كلّ ما فى الأرض من أجل النّاس ، وحينما نجمع بين الآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن خلق السّماوات والأرض وبخاصّة قوله تعالى من سورة فصّلت[١] : ﴿ قل أئنّكم لتكفرون بالّذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيّامٍ سواءً للسّائلين . ثم استوى إلى السّماء وهى دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعًا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سماواتٍ فى يومين وأوحى فى كلّ سماءٍ أمرها وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وحينما نتبيّن أنّ آيات سورة فصّلت قد رتّبت خلق السّماوات والأرض فى ستّة أيّام على هذا النّحو ، خلق الأرض دون دحو فى يومين ، خلق السّماوات فى يومين ، تهيئة الأرض كى تسكنها الخلائق فى يومين ، نستطيع أن نفهم أنّ آية سورة البقرة الكريمة فى حديثها عن خلق ما فى الأرض جميعاً ، تعنى خلق الأرض ذاتها فى المقام الأوّل وكونها صالحةً لأن تتهيّأ للمرحلة التّالية الّتى تمّت بعد خلق السّماوات ألا وهى تهيئة الأرض لسُكنى الخلائق وبخاصّة جنس الإنسان . إنّ خلق السّماوات تمّ بعد خلق الأرض دون دحو ، وإنّ حرف العطف « ثمّ » الّذى يدلّ أساساً على الترتيب مع التّراخى يشمل هذه الحقيقة . وحينما يُفْهَمُ من القول ﴿ هو الّذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ خلق الأرض وتهيئتها لسُكنى الخلائق معاً ، يبدو نظر العلماء السّديد فى تبيين معنى حرف العطف ثمّ فى مثل قول القرطبىّ رحمه الله تعالى[٢] « ثم لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر فى نفسه » .

وبشأن توزيع الأيّام السّتّة على خلق الأرض فالسّماء فتهيئة الأرض لسُكنى الإنسان ، على النّحو الّذى بيّناه ، قد بيّنه كلّ من القرطبىّ[٣] والزّمخشرىّ[٤] وأبى حيّان[٥] والطّبرىّ[٦] ويقول ابن كثير[٧] : « وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله

---

(١) الآيات ٩ — ١٢ (٢) تفسير القرطبى ص ٢١٧

(٣) تفسير القرطبى ص ٢١٨ (٤) الكشّاف ١/٢٠٩

(٥) البحر المحيط ١/١٣٥ (٦) تفسير الطّبرىّ ١/١٥٣

(٧) تفسير ابن كثير ١/٦٧ وانظر ص ٦٨ وفيه : « وفى صحيح البخارىّ أنّ ابن عبّاس سُئل عن هذا بعينه فأجاب بأنّ الأرض خلقت قبل السّماء وأنّ الأرض إنّما دحيت بعد خلق السّماء » .

ثمّ أعاليه بعد ذلك » ويسجّل الطّبريّ رأى ابن عباس رضى الله عنهما . يقول[١] « عن ابن عبّاس .... وذلك أنّ الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السّماء ثمّ استوى إلى السّماء فسّواهنّ سبع سماوات ثمّ دحا الأرض بعد ذلك فذلك قوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ »[٢] .

ورغم انسياح الأرض طولاً وعرضاً ، وكون ما بين السّماء والسّماء الأخرى مسيرة خمسمائة عام[٣] وفى كلٍّ من المخلوقات ما لا يحصيه إلاّ موجده من العدم جلّ وعلا الّذى له وحده الخلق والأمر ، فليس ثمة شيءٌ يخرج من دائرة إحاطته جلّ وعلا ، فالله سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ﴿ وهو بكل شيءٍ عليم ﴾ ﴿ يعلم السّرّ وأخفى ﴾[٤] ﴿ يعلم الجهر وما يخفى ﴾[٥] ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما فى البّر والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبّةٍ فى ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاّ فى كتابٍ مبين ﴾ ﴿ وما من دابّةٍ فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلٌّ فى كتابٍ مبين ﴾[٦] ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السّماء وما يعرج فيها وهو الرّحيم الغفور ﴾[٧] ﴿ لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرّةٍ فى السّماوات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلاّ فى كتابٍ مبين ﴾[٨] .

الآيــة رقــم (٣٠)

قال تعالى : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبحّ بحمدك ونقدّس لك قال إنّى أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/١٥٣
(٢) سورة النّازعات ٣٠
(٣) تفسير الطّبرىّ ١/١٥٣
(٤) سورة طه ٧
(٥) سورة الأعلى ٧
(٦) سورة هود ٦
(٧) سورة سبأ ٢
(٨) سورة سبأ ٣

وإذ قال ربّك : أى واذكر يا محمد إذ قال ربّك للملائكة واقصص على قومك ذلك[١] .

للملائكة : قال أبو جعفر : والملائكة جمع ملك غير أنّ واحدهم بغير الهمز أكثر وأشهر فى كلام العرب منه بالهمز (مَلأَك) وذلك أنّهم يقولون فى واحدهم ملك من الملائكة فيحذفون الهمز منه ويحرّكون اللاّم الّتى كانت مسكّنةً لو همز الاسم . وإنّما يحرّكونها بالفتح لأنّهم ينقلون حركة الهمزة الّتى فيه بسقوطها إلى الحرف السّاكن قبلها . فإذا جمعوا واحدهم ردّوا الجمع إلى الأصل وهمزوا فقالوا : ملائكة[٢] وربّما جاء الواحد مهموزاً كما قال الشّاعر :

فلست لإنسىٍّ ولكن لمَلأَك تحدّر من جوّ السّماء يصوب[٣]

والتّاء فى الملائكة تأكيدٌ لتأنيث الجمع وقيل هى للمبالغة كعلاّمة ونسّابة[٤].

فى الأرض : ظاهره الأرض كلّها وهو قول الجمهور[٥] .

والخليفة « يكون بمعنى فاعل أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض . أو من كان قبله من غير الملائكة على ما روى . ويجوز أن يكون خليفة بمعنى مفعول أى مخلف . كما يقال ذبيحة بمعنى مفعولة . والخلف بالتّحريك من الصّالحين وبتسكينها من الطّالحين ..... فى حديث أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله : أنبيّاً كان مرسلاً ؟ قال نعم . الحديث . ويقال : لمن كان رسولاً و لم يكن فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولاً إلى ولده وكانوا أربعين ولداً فى عشرين بطناً فى كلّ بطن ذكرٌ وأنثى وتوالدوا حتّى كثروا . كما قال الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٦٩/١ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٢٢٤ وتفسير الجلالين والكشاف ٢٠٩/١

(٢) تفسير الطبرى ١٥٥/١ وانظر الكشاف ٢٠٩/١
وتفسير القرطبى ص ٢٢٤

(٣) تفسير الطبرى ١٥٥/١

(٤) انظر تفسير القرطبىّ ص ٢٢٥ والبحر المحيط ١٣٨/١

(٥) البحر المحيط ١٤٠/١

تعالى : ﴿ خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾[١] ويقول ابن كثير[٢] : « والخليفة الفعيلة من قولك خلف فلانٌ فلاناً فى هذا الأثر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى ﴿ ثمّ جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾. ومن ذلك قيل للسّلطان الأعظم خليفة لأنّه خلف الّذى كان قبله فقام بالأمر فكان منه خلفاً » ويقول أبو حيّان[٣] : « خليفة فعيلة . وفعيلة أتى بمعنى الفاعل للمبالغة كالعليم . أو بمعنى المفعول كالنّطيحة. والهاء للمبالغة » « وفى المستخلف فيه آدم قولان : أحدهما الحكم بالحقّ والعدل . الثّانى عمارة الأرض يزرع ويحصد ويبنى ويجرى الأنهار »[٤] وفى قول ابن مسعود وابن عبّاس آدم عليه السّلام خليفةٌ عن الله تعالى[٥] .

قالوا أتجعل فيها : « لّما كانت الملائكة لا تعلم الغيب ولا تسبق بالقول لم يكن قولهم أتجعل فيها الآية إلاّ عن نبأ ومقدّمه . فقبل الهمزة وإن كان أصلها للاستفهام فهو قد صحبه معنى التّعجّب . قاله مكّىّ وغيره »[٦] .

أتجعل فيها من يفسد فيها « قد علمنا قطعاً أنّ الملائكة لا تعلم إلاّ ما أعلمت ولا تسبق بالقول . وذلك عامٌّ فى جميع الملائكة لأنّ قوله : لا يسبقونه بالقول ، خرج على جهة المدح لهم فكيف قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ؟ فقيل : المعنى أنّهم لمّا سمعوا لفظ خليفة فهموا أنّ فى بنى آدم من يفسد . إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد . لكن عمّموا الحكم على الجميع بالمعصية فبيّن الرّبّ تعالى أنّ فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم : إنّى أعلم . وحقّق ذلك بأن علّم آدم الأسماء وكشف لهم عن مكنون علمه[٧] » .

السّفك : الصّبّ والإراقة ، لا يستعمل إلاّ فى الدّم . ويقال : سفَك وسفِك وأسفك بمعنى . ومضارع سفك يأتى على يفعل ويفعل[٨] وقيل إنّه يستعمل فى الدّمع كذلك .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٢٢٥ وانظر البحر المحيط ١/١٤٠

(٢) تفسير ابن كثير ١/٧٠

(٣) البحر المحيط ١/١٣٨

(٤) البحر المحيط ١/١٤٠

(٥) البحر المحيط ١/١٤٠

(٦) البحر المحيط ١/١٤١

(٧) تفسير القرطبىّ ٢٣٤

(٨) البحر المحيط ١/١٣٨

حكاه ابن فارس والجوهرى[١] .

وواحد الدّماء دم محذوف اللاّم . وقيل أصله دَمْى وقيل دَمَىٌ [٢] .

ونحن : الواو فى ونحن للحال[٣] ونحن نسبّح جملة حاليّة[٤] .

والتّسبيح : تنزيه الله وتبرئته عن السّوء . ولا يستعمل إلاّ لله تعالى[٥] ونحن نسبّح بحمدك أى ننزّهك عمّا لا يليق بصفاتك ، والتّسبيح فى كلامهم التّنزيه من السّوء على وجه التّعظيم .... وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال : هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كلّ سوء . وهو مشتقّ من السَّبح وهو الجرى والذّهاب . قال الله تعالى : إنّ لك فى النّهار سبحاً طويلاً . بالمسبّح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السّوء[٦] وقال قتادة : تسبيحهم سبحان الله على عُرْفه فى اللّغة وهو الصّحيح لما رواه أبو ذرّ أنّ رسول الله ﷺ سئل : أىُّ الكلام أفضل ؟ قال : ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده . أخرجه مسلم[٧] .

ونحن نسبّح بحمدك : أى نسبّح ملتبسين بحمدك[٨] أى نقول : سبحان الله وبحمده[٩] والحمد هو الثّناء .... وإنّما جاء بحمدك بعد نسبّح ، لاختلاط التّسبيح بالحمد[١٠] .

ونقدّس لك : أى نعظمك ونمجّدك ونطهّر ذكرك عمّا لا يليق بك ممّا نسبك إليه المُلْحدون . قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما .... وكان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : سبّوح قدّوس رب الملائكة والرّوح . روته عائشة . أخرجه مسلم . وبناء قدس كيفما تصرّف فإنّ معناه التّطهير ، ومنه قوله تعالى : ادخلوا الأرض المقدّسة . أى المطهّرة . وقال : الملك القدّوس : يعنى الطّاهر . ومثله : بالواد المقدّس طوى .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٢٣٦
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٢٣٦
(٣) الكشّاف ١/٢٠٩
(٤) البحر المحيط ١/١٤٢
(٥) البحر المحيط ١/١٣٨
(٦) تفسير القرطبىّ ٢٣٦
(٧) تفسير القرطبىّ ٢٣٧
(٨) البحر المحيط ١/١٤٣
(٩) الجلالين
(١٠) البحر المحيط ١/١٤٣

وبيت المقدس سمّى به لأنّه المكان الّذى يتقدّس فيه من الذّنوب أى يتطهّر .... فالقدس الطّهر من غير خلاف[١] و « قال أبو جعفر : والتّقديس هو التّطهير والتّعظيم ومنه قولهم : سبّوح قدّوس . يعنى بقولهم سبّوح تنزيهٌ لله . وبقولهم قدوس طهارةٌ له وتعظيم . ولذلك قيل للأرض أرض مقدسة ، يعنى بذلك المطهّرة . فمعنى قول الملائكة إذاً : ونحن نسبّح بحمدك ننزّهك ونبرّئك ممّا يضيفه إليك أهل الشّرك بك ونصلّى لك . ونقدّس لك ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطّهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك »[٢] .

أعلم : منقول من علم الّتى تتعدّى لواحد ، فرقوا بينها وبين علم الّتى تتعدّى لاثنين فى النّقل . فعدّوا تلك بالتضّعيف وهذه بالهمزة[٣] .

ما لا تعلمون . « قال قتادة : لمّا قالت الملائكة أتجعل فيها وقد علم الله أنّ فيمن يستخلف فى الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم : ﴿ إنّى أعلم ما لا تعلمون ﴾ »[٤] وقول ابن كثير[٥] : أى أعلم من المصلحة الرّاجحة فى خلق هذا الصّنف على المفاسد الّتى ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإنّى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرّسل ويوجد منهم الصّدّيقون والشّهداء والصّالحون والعبّاد والزّهّاد والأولياء والأبرار والمقرّبون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبّون له تبارك وتعالى المتّبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم . وقد ثبت فى الصّحيح أنّ الملائكة إذا صعدت إلى الربّ تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلّون . وذلك لأنّهم يتعاقبون فينا ويجتمعون فى صلاة الصّبح وفى صلاة العصر فتمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصّلاة والسّلام : يرفع إليه عمل اللّيل قبل النّهار وعمل النّهار قبل اللّيل . فقولهم أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلّون من تفسير قوله لهم : ﴿ إنّى أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٢٣٧
(٢) تفسير الطّبرىّ ١٦٧/١
(٣) البحر المحيط ١٣٨/١
(٤) تفسير القرطبىّ ٢٣٨
(٥) تفسير ابن كثير ٦٩/١

بعد أن كان الخطاب متّجهاً إلى الفاسقين الخاسرين الكافرين منكراً عليهم كفرهم ، مقرراً خلقهم وخلق السّماوات والأرض وما فيهنّ ، يتحوّل الخطاب إلى المصطفى ﷺ في ألطف عبارة إذ يجيء لفظ الرّبّ متّصلاً به ضمير المفرد المخاطب العائد إلى المصطفى ﷺ ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة﴾ والمعنى كما عرفنا واذكر يا محمد إذ قال ربّك للملائكة ، وفي هذه الطّريقة من الخطاب كبير دليل على منزلة أشرف الخلق لدى بارئه جلّ وعلا . والمعنى الّذي يتّجه الخطاب بشأنه إلى المصطفى ﷺ غايةٌ في الأهمّيّة ، إذ إنّه يتعلّق بإحدى قضايا الغيب وأنبائه الّتي ما كان للمصطفى ﷺ أن يعلمها لولا تعليم الله تعالى إيّاه . إنّ ربّ العزّة يبيّن في الذكر الحكيم أنّه قال للملائكة إنّه جلّ وعلا جاعلٌ في الأرض خليفة ، يخلفه جلّ وعلا في تطبيق شريعته وتنفيذ أحكامه وعمارة الأرض والقيام بالهدف الأسمى الّذي سيخلقه من أجله ، ألا وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . أمّا هذا الخليفة الّذي كرّمه الله تعالى بالاستخلاف في الأرض فهو آدم عليه السّلام الّذي لم يسلب ربّ العزّة ذرّيّته شيئاً من خصائصه ومزاياه واستعداداته .

إنّ ربّ العزة الّذي لا يُسْأل عمّا يفعل يقول للملائكة ، وهي المخلوقات النّورانيّة الّتي لا تعصى الله تعالى ما أمرها وتفعل ما تؤمر به : ﴿ إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة ﴾ ومن العلماء من فهم من هذه العبارة القرآنيّة أن ثمّة درساً عظيماً ينبغي أن يستفيده العباد ويترجموه إلى عمل فإنّ فيه صلاحهم . أمّا هذا الدّرس القرآنيّ فهو المصرّح به في غير ما موضع في القرآن الكريم والمتعلّق بالشّورى .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة « جاعل » وليس لفظة « خالق » مثلا . وإذا كنّا قد عرفنا أنّ الخلق يعني الإبداع والإيجاد من العدم ، ففي الإمكان أن نعرف كذلك أنّ جملة « جعل » ومتعلّقاتها ترتبط بمرحلةٍ تاليةٍ لعمليّة الخلق ، ألا وهي عمليّة التّهيئة للمخلوق كي يحقّق غايةً مرجوّة والتّصيير له يحقّق هدفاً منشودا .

ولمّا كان من متعلّقات لفظ الخليفة العمل على تحقيق صلاح الخلائق وترك الفساد ، ويُفْهَمُ من ذلك أنّ الفساد سيحلّ بالأرض ، لذا كان جوابهم الاستفهاميّ المقرون بالتّعجّب من الإفساد في الأرض وسفك الدّماء ، من قبل أتباع هذا الخليفة . ويبدو

الاستفهام عميقاً غوره بعيداً مرماه حينما يتبيّن أنّ الملائكة مفردو الإرادة بمعنى أنّهم يعرفون الطّاعة وحدها ولا يعرفون شيئاً من المعصية مطلقاً . وحينما يقرن إلى عدم عصيان الملائكة بارئهم جلّ وعلا ، كونُهم المسبّحين بحمد الله تعالى المنزّهينه جلّ وعلا المطهّرينه من كلّ ما لا يليق به جلّ وعلا ممّا ألصقه به عزّ وجلّ الفاسقون الخاسرون الكافرون ، تبدو أعماق استفهام الملائكة المقرون بالتّعجّب فى القول : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ﴾ إنّ جنس الإنسان كفور ظلومٌ جهول .

ولمّا كان استفهام الملائكة المقترن به التّعجّب من الإفساد فى الأرض وسفك الدّماء شاملاً لكلّ بنى آدم ، وليس الأمر كذلك ، فإنّ فيهم المرسلين والنبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين ، فقد كان الرّد من ربّ العزّة فى القول : ﴿ قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ وقد بيّنت آية كريمة تالية بعض أبعاد العلم الّذى لا يعلمه الملائكة ومن باب أولى سواهم ، وذلك فى القول : ﴿ قال ألم أقل لكم إنّى أعلم غيب السّماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

الآيــة رقــم (٣١)

قال تعالى : ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ .

وعلّم آدم الأسماء كلّها : تعليمه هنا إلهامٌ علمه ضرورة . ويحتمل أن يكون بواسطة ملك وهو جبريل عليه السّلام[١] .

وآدم عليه السّلام يُكْنى أبا البشر[٢] وآدم اسم أعجمىّ كآزر وعابر ممنوع الصّرف للعلميّة والعجمة[٣] وأصله بهمزتين لأنه أفْعَل إلاّ أنّهم ليّنوا الثّانية ، فإذا احتجت إلى

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٢٣٨ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٢٣٨

(٣) البحر المحيط ١/١٣٨ والكشاف ١/٢١٠

تحريكها جعلتها واواً فقلت : أو ادم فى الجمع لأنّه ليس لها أصلٌ فى البناء معروف فجعلت الغالب عليها الواو وعن الأخفش[١] واختلف فى اشتقاقه فقيل هو مشتقٌّ من أَدَمة (بفتح الهمزة والدّال) الأرض وأديمها وهو وجهها ، فسمىّ بما خلق منه . قاله ابن عبّاس . وقيل إنّه مشتقٌّ من الأُدْمة (بضمّ الهمزة وسكون الدّال) وهى السُّمرة . واختلفوا فى الأدمة فزعم الضحّاك أنّها السُّمرة . وزعم النّضر أنّها البياض وأنّ آدم عليه السّلام كان أبيض مأخوذ من قولهم : ناقة أدماء إذا كانت بيضاء ... قلت الصّحيح أنّه مشتقٌّ من أديم الأرض[٢] .

قال أبو جعفر النّحّاس : آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النّحويّين لأنّه على أفعل وهو معرفة[٣] .

الأسماء أى أسماء المسمّيات[٤] واختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء الّتى علّمها لآدم عليه السّلام . فقال ابن عبّاس وعكرمة وقتادة ومجاهد وابن جبير علّمه أسماء الأشياء كلّها جليلها وحقيرها .... وفى البخارىّ من حديث أنس عن النّبىّ ﷺ قال : ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربّنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو النّاس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كلّ شىء الحديث .... عن قتادة قال : علّم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة وسمّى كلّ شىءٍ باسمه وأنحى منفعة كلّ شىءٍ إلى جنسه . قال النّحّاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا[٥]

ثمّ : حرف تراخٍ ومهلة . علّم آدم ثمّ أمهله من ذلك الوقت إلى أن قال أنبئهم بأسمائهم ليتقرّر ذلك فى قلبه ويتحقّق المعلوم ثمّ أخبره عمّا تحقّق به واستيقنه . وأمّا الملائكة فقال لهم على وجه التعقيب دون مهلة أنبئونى . فلمّا لم يتقدّم لهم تعريفٌ لم يخبروا . ولمّا تقدّم لآدم التّعليم أجاب وأخبر ونطق إظهاراً لعنايته السّابقة سبحانه[٦] .

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٢٣٩ ونظر اللّسان « أدم » .
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٢٣٩ وانظر اللّسان « أدم » وتفسير الطّبرى ١/١٧٠
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٢٤٠
(٤) الجلالين وانظر الكشّاف ١/٢١٠
(٥) تفسير القرطبى ص ٢٤١
(٦) البحر المحيط ١/١٤٦

والعَرْض : إظهار الشّيء حتّى تعرف جهته[١] والظّاهر أنّ ضمير النّصب فى عرضهم يعود على المسمّيات . وظاهره أنّه للعقلاء فيكون إذ ذاك المعنىّ بالأسماء أسماء العاقلين . أو يكون فيهم غير العقلاء وغلّب العقلاء[٢] .

أنبئونى : أمر تعجيز لا تكليف[٣] والإنباء الإخبار[٤] والنّبأ الخبر[٥] هؤلاء : اسم إشارة للقريب . وها للتّنبيه . والاسم أولاء مبنىّ على الكسر .... وذكر الفرّاء أنّ المدّ فى أولاء لغة الحجاز والقصر لغة تميم . وزاد غيره أنّها لغة بعض قيس وأسد[٦] .

إن كنتم صادقين : شرط والجواب محذوف تقديره إن كنتم صادقين أنّ بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى . قاله المبرّد[٧] عن ابن عبّاس وابن مسعود وعن ناسٍ من الصّحابة : إن كنتم صادقين أنّ بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدّماء[٨] ومعنى صادقين عالمين ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا : سبحانك[٩] ويقول أبو حيّان[١٠] : « والصّدق هنا هو الصّواب أى إن كنتم مصيبين » .

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى خصّ آدم عليه السّلام بأن علّمه أسماء المسمّيات كلّها ، صغيرها وكبيرها ، حقيرها وجليلها . والآية الكريمة تستخدم حرف العطف « ثمّ » فى القول بشأن الملائكة ﴿ ثمّ عرضهم على الملائكة ﴾ ممّا يفهم منه إعطاء آدم عليه السّلام الفرصة الكافية كى يستوعب أسماء المسمّيات ، وفى هذا الإعطاء وما ترتّب عليه من إنباء آدم عليه السّلام الملائكة بأسماء المسمّيات دليلٌ على استعداد آدم عليه السّلام أن يتعلّم ، وسنتبيّن أنّ الملائكة حينما امتثلت أمر الله تعالى لها بأن تسجد لآدم عليه السّلام سجود تحيّة وتكريم ، إنّما كانت بامتثالها أمر الله تعالى تكرّم العلم فى شخص آدم عليه السّلام العالم والمعروف أنّ ذريّة آدم عليه السّلام لديهم الاستعداد لأن

---

(١) البحر المحيط ١/١٣٨
(٢) البحر المحيط ١/١٤٦
(٣) البحر المحيط ١/١٤٦
(٤) البحر المحيط ١/١٣٨
(٥) تفسير القرطبى ص ٢٤٣
(٦) البحر المحيط ١/١٣٨
(٧) تفسير القرطبى ص ٢٤٣
(٨) تفسير ابن كثير ١/٧٤ وتفسير الطّبرىّ ١/١٧٣
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٢٤٣
(١٠) البحر المحيط ١/١٤٧

يتعلموا فلم يسلب الله تعالى ذريّة آدم عليه السّلام شيئاً من نعمه الّتى أسبغها على أبيهم وفى مقدّمة هذه النّعم نعمة العلم والاستعداد لأن يتعلّموا .

لقد عرض الله سبحانه وتعالى المسمّيات على الملائكة وأمرهم أن ينبئوه جلّ وعلا بأسمائها ، إن كانوا صادقين فى تعميمهم السّابق المتعلّق هو الآخر بالعلم ، وقولهم كما جاء على لسانهم ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك ﴾ ويلاحظ أنّ تعميم الملائكة القول بأنّ ذرّيّة الخليفة ستفسد فى الأرض وتسفك الدّماء ذو علاقةٍ من نوعٍ مّا بعالم الغيب الّذى ليس لديهم علمٌ من الله تعالى بشيءٍ منه . وإنّ أمرهم بالإخبار بأسماء المسمّيات ذو علاقةٍ هو الآخر بعالم الغيب ومن جِنْسه . وعليه يكون ما أمر الله به الملائكة بأن ينبئوه جلّ وعلا بأسماء المسمّيات له المهيّىء من جنسه والموطّىء من نوعه على لسانهم حينما عمّموا القول بأنّ بنى آدم يفسدون فى الأرض وقد كان جواب ربّ العزّة عليهم فى القول : ﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ ففى هذه الذّرّيّة المرسلون والنّبيّون والصّدّيقون والشّهداء والصّالحون . وإنّ جواب الملائكة بأنهم لا يعلمون إلاّ ما علّمهم الله وإعلانهم ذلك إعلانٌ ضمنىّ بقصور علمهم عن حقيقة آدم عليه السلام وذرّيّته وتقييدٌ للعلم السّابق الّذى أطلقوه وأرسلوه .

الآيــة رقــم (٣٢)

قال تعالى : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم ﴾ .

سبحان مصدر لا تصرّف له[١] منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه يؤدّى عن معنى نسبّحك تسبيحا[٢] كأنّهم قالوا : نسبحّك تسبيحاً وننزّهك تنزيهاً ونبرّئك من أن نعلم شيئاً غير ما علّمتنا[٣] .

ما فى : إلاّ ما علّمتنا ، بمعنى الّذى أى إلاّ الّذى علّمتنا[٤] .

---

(١) تفسير الطبرى ١/١٧٥ (٢) تفسير القرطبى ص ٢٤٦

(٣) تفسير الطّبرىّ ١/١٧٥

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٢٤٤ والبحر المحيط ١/١٤٧

والعليم فعيل للمبالغة والتّكثير فى المعلومات فى خلق الله تعالى[١] وعن ابن عبّاس : العليم الّذى قد كمل فى علمه[٢] قال أبو جعفر وتأويل ذلك أنّك أنت يا ربّنا العليم من غير تعليم بجميع ما قد كان وما هو كائن والعالم للغيوب دون جميع خلقك[٣] .

والحكيم فعيل بمعنى مفعل من أحكم الشّىء أتقنه ومنعه من الخروج عمّا يريده[٤] والمانع من الفساد . ومنه سمّيت حَكَمةُ اللّجام لأنّها تمنع الفرس من الجرى والذّهاب فى غير قصد .... والسّورة المحكمة : الممنوعة من التّغيير و كلّ التّبديل وأن يلحق بها ما يخرج عنها ويزاد عليها ما ليس منها ، والحِكمة من هذا لأنّها تمنع صاحبها من الجهل . ويقال : أحكم الشّىء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عمّا يريد فهو محكمٌ وحكيمٌ على التّكثير[٥] .

بيّن ربّ العزّة للملائكة أنّه جاعلٌ فى الأرض خليفة وكان جواب الملائكة المعروف الّذى ذهبوا معه إلى كون الّذين سيسكنون الأرض من بنى آدم سيفسدون فى الأرض ، وهذا الجواب ذو علاقةٍ بنوعٍ من العلم الّذى ارتبط به نوعٌ من التّعميم حينما ذهب الملائكة إلى إفساد بنى آدم دون الإصلاح . وخلق الله تعالى آدم عليه السّلام واصطفاه بنوعٍ من العلم . وبهذا يتبيّن أنّ اصطفاء الله تعالى آدم بالعلم الّذى هو من جنس العلم الّذى أدلوا به فى حقّ بنى آدم ، تلا ذلك سؤال الله تعالى الملائكة عن أسماء المسمّيات وهذا السّؤال كذلك عن ضربٍ من العلم . إنّ جوّ العلم هو المسيطر على الأجواء وفى مقدّمة ذلك قوله عزّ من قائل : ﴿ إنّى أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

ولمّا كان الملائكة ليسوا على علمٍ بأسماء المسمّيات لأنّ ربّ العزّة لم يعلّمهم تلك الأسماء ، فقد كان جوابهم ابتداءً تنزيهاً لله سبحانه وتعالى وتبرئةً له جلّ وعلا من أن يعلموا شيئاً غير ما علّمهم جلّ وعلا . وفى هذه التّوطئة بين يدى الإقرار بعدم العلم ما لم يعلّمهم الله جلّ وعلا ضربٌ من الاعتذار عمّا بدر منهم من جواب فهم منه ادّعاؤهم فضل علم ،

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٢٤٦ وانظر البحر المحيط ١٤٨/١

(٢) تفسير الطّبرى ١٧٥/١ (٣) تفسير الطّبرىّ ١٧٥/١

(٤) البحر المحيط ١٣٩/١ (٥) تفسير القرطبى ص ٢٤٦

فلعلّ فى هذا الاعتذار المقترن به التّنزيه ، والأدب فى الجواب المرتبط به التّسبيح محواً لذلك الّذى صدر منهم .

وينفى الملائكة بصريح اللّفظ كلّ علمٍ إلا ما علّمهم الله تعالى إيّاه . وبهذا نكون بصدد درجةٍ أكبر من الاعتذار ومن صريح التّعبير بعد الإيماء إليه فى التّنزيه والتّلميح . ثمّ كان التّعبير فى أقوى الصّور عن كون ربّ العزّة هو العليم وهو الحكيم . إنّ الملائكة تبيّن من جوابهم علمهم بعض الأشياء فقط بينما غابت عنهم أشياء أخرى . وإنّ آدم عليه السّلام قد خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم وأكرمه بفضيلة العلم وبالاستعداد لأن يتعلّم . وبسبب تعليم الله تعالى له تقدّم فى مجال العلم على الملائكة . فكلّ علم إنّما هو ما علّمه الله تعالى خلقه . والله سبحانه وتعالى هو العليم الّذى أحاط بكلّ شيٍ علماً وهو الحكيم فى صنعه وتدبيره . إنّنا بصدد مجموعة صيغ تعمّق هذه المعانى فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة فإنّ واسم الضّمير المنفصل « أنت »وصيغة المبالغة « عليم » الّتى أردفت بها لفظة « حكيم » الموافقة لها صيغة والّتى تستفيد من صيغة المبالغة السّابقة المجاورة ، كلّ ذلك معمّق لعلم الله تعالى المحيط وحكمته الشّاملة .

الآيــة رقــم (٣٣)

قال تعالى : ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

عجزت الملائكة عن ذكر أسماء المسمّيات لأنّ الله سبحانه وتعالى لم يعلمّهم إيّاها . ولمّا كان رب العزّة قد علّم آدم عليه السّلام الأسماء الّتى وعاها آدم بإذن الله تعالى . لذا فإنّه حينما أمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بأسماء المسمّيات ، الّتى روعى فيها هنا أيضاً تغليب جانب العقلاء فقيل « أسمائهم » كان مستعدّاً لإنباء الملائكة امتثالاً للأمــر « أنبئهم » أى أنبئ الملائكة .

ويلفت النّظر فى الآية الكريمة الطّريقة الّتى يخاطب ربّ العزّة فيها آدم عليه السّلام وسائر النبيّين والمرسلين باستثناء خاتمهم وأشرفهم محمد بن عبد الله ﷺ . إن آدم عليه

السلام يخاطب باسمه « يا آدم » وإنّ سائر النّبيّين والمرسلين . ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام وانتهاءً بعيسى ابن مريم عليهما السّلام ، يخاطبون بأسمائهم فيقال يا نوح يا إبراهيم يا موسى يا عيسى وهكذا . أمّا محمّد بن عبد الله ﷺ فلا يخاطب فى القرآن إلا بالصّفتين اللّتين تتضمّنان أرفع نعم الله تعالى على عبدٍ من عباده ، وهما نعمة النّبُوّة ونعمة الرّسالة فيقال فى العديد من المواضع : يا أيّها النّبىّ ويقال ، يا أيّها الرّسول وذلك فى موضعين إثنين فى القرآن الكريم ، فى الآيتين الكريمتين من سورة المائدة ، الحادية والأربعين والسّابعة والسّتّين . ولا يشار إلى المصطفى ﷺ فى القرآن الكريم باسمه إلاّ فى سياق التّعريف بفضل الله تعالى عليه باصطفائه بنعمة الرّسالة وإنزال أشرف الكتب السّماويّة عليه ووجوب التّصديق بالرّسول الكريم والإيمان بالقرآن العظيم . بشأن الاسم محمّد فى أربعة مواضع ، فى سورة آل عمران الآية الرّابعة والأربعين بعد المائة وسورة الأحزاب الآية الأربعين وسورة محمّد ﷺ الآية الثّانية وسورة الفتح الآية التّاسعة والعشرين . وبشأن الاسم أحمد فى سورة الصّف الآية السّادسة .

وامتثالاً لأمر الله تعالى وتنفيذاً لمشيئته جلّ وعلا ينبئ آدم عليه السّلام الملائكة بأسماء المسمّيات الّتى عجزوا عن الإنباء بها لأنّها خارج دائرة العلم الّذى آتاهم الله تعالى إيّاه . وهذا العجز عن إحاطة العلم بالمسمّيات وإعلانه ، اعترافٌ ضمنىّ بالعجز عن إحاطة العلم بما سبق أن بدر منهم فى حقّ الخليفة الّذى سيجعله الله تعالى فى الأرض وذرّيّته . إنّ الملائكة لم يعلّمهم الله تعالى أسماء المسمّيات و لم يعلّمهم بصفات الخليفة الّذى سيخلفه ويسكنه فى الأرض كى يمارس صلاحيّات الخليفة . وإنّ الملائكة بشأن الأمر المباشر بالإخبار بالأسماء الّتى يجهلونها كان جوابهم بعدم العلم صريحاً ، أمّا حينما كان ثمّة مجالٌ لإبداء الرّأى بشأن جعل الخليفة فى الأرض فقد كان منهم الاجتهاد والإدلاء بشىءٍ من العلم وليد الاجتهاد ، وقد تبيّن أنّ هذا الرّأى شمل بعض الحقيقة ففى بنى آدم من يفسد فى الأرض ويسفك الدّماء بينما الملائكة يحقّقون الهدف الذى خلق الله سبحانه وتعالى من أجله الخلق وهو عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له وطاعته وعدم عصيانه . أمّا البعض الآخر من الحقيقة ، وهو المتّصل بنعوت هذا الخليفة وتفضيل الله تعالى له على كثيرٍ ممّن

خلق ، واصطفاء بعض أفراده بأكبر النّعم كالرّسالة والنّبوّة ، فإنّ رأى الملائكة لم يشمله . والمعروف أنّ الملائكة مفردو الإرادة لا يعرفون سوى طاعة الله تعالى ، وهذه الطّاعة المطلقة هى الهدف الأسمى من خلق الله تعالى الخلق ، وأنّ بنى آدم ثنائيّو الإرادة بمعنى أنّهم يصحّ أن تصدر عنهم الطّاعة كما يصحّ أن تصدر عنهم المعصية . وقد لاحظنا أنّ رأى الملائكة شمل أحد الاحتمالين وسيّئهما . وحينما يرقى ابن آدم ثنائيّ الإرادة بفضل الله تعالى إلى أسمى درجات التّقوى والصّلاح ، هاجراً طريق المعصيَة بالكلّيّة ، بعون الله تعالى وتوفيقه ، يكون معنى ذلك أنّه كاد يحقّق مطلق الطّاعة الّذى تمتاز به الملائكة . وفرق بين الملائكة وابن آدم أنّ الملائكة لا تعرف سوى مطلق الطّاعة بينما الإنسان الّذى تصحّ منه المعصية ، استطاع بعون الله تعالى ثمّ باجتهاده أن يصل إلى ما وصل إليه من مستوى فى الطّاعة رفيع يدنو من طاعة الملائكة المطلقة .

وبسبب اجتهاد ابن آدم فى طاعة الله تعالى وعبادته وارتقائه إلى أعلى الدّرجات ، أعنى درجة الإحسان ، بالمعنى الّذى بيّنه النّبىّ ﷺ وهو أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، حصل خلافٌ بين العلماء فى مجال المقارنة بين الملائكة وصالحى ابن آدم . يقول مثلاً القرطبىّ فى هذا الشّأن[1] : « اختلف العلماء فى هذا الباب : أيُّما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين ، فذهب قومٌ إلى أنّ الرّسل من البشر أفضل من الرّسل من الملائكة والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة . وذهب آخرون إلى أنّ الملأ الأعلى أفضل . احتجّ من فضّل الملائكة بأنّهم عبادٌ مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقوله : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون ﴾ وقوله : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنّى ملك ﴾ . وفى البخارىّ يقول الله عزّ وجلّ : من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خيرٍ منهم . وهذا نصٌّ » .

واحتجّ من فضّل بنى آدم بقوله تعالى : ﴿ إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك هم خير البريئة ﴾ ، بالهمز من برأ الله الخلق . وقوله عليه السّلام : إنّ الملائكة لتضع

---

(١) تفسير القرطبى ص ٢٤٧